Journal of Human and Social Sciences (JHSS) • Vol 7, Issue 8 (2023) • P: 74 - 54
https://journals.ajsrp.com/index.php/jhss
ISSN: 2522-3380 (Online) • ISSN: 2522-3380 (Print)

The role of the Barbarossa brothers in extending the Ottoman influence in the central Maghreb (Algeria) (916-953 AH / 1510-1546 AD)

Prof. Osama M. Abu Nahel

Faculty of Arts & Human Sciences | Al-Azhar University | Gaza | Palestine

Received: 28/05/2023

Revised: 07/06/2023

Accepted: 15/06/2023

Published: 30/08/2023

* Corresponding author: osamabunahel@hotmail.com

Citation: Abu Nahel, O. M. (2023). The role of the Barbarossa brothers in extending the Ottoman influence in the central Maghreb (Algeria) (916-953 AH / 1510-1546 AD). *Journal of Humanities & Social Sciences, 7*(8), 54 – 74 . https://doi.org/10.26389/AJSRP.N280523

2023 © AISRP • Arab Institute of Sciences & Research Publishing (AISRP), Palestine, all rights reserved.

• **Open Access**

This article is an open access article distributed under the terms and conditions of the Creative Commons Attribution (CC BY-NC) license

Abstract: The study dealt with the state of weakness and disintegration that prevailed in the countries of the Islamic Maghreb in general, and the central Maghreb region (Algeria) in particular, which led the Portuguese and Spanish to take advantage of the opportunity to occupy a large number of its cities. Meanwhile, with the help of the Ottoman Sultanate, the phenomenon of Islamic maritime jihad emerged in the western basin of the Mediterranean and in the central Maghreb, which aimed to help the Muslims of Andalusia fleeing their religion from the persecution of the Spanish on the one hand and worked to liberate the cities of the central Maghreb which the Spanish had occupied on the eve of and after the fall of Granada on the other hand. This task was undertaken by the two brothers Arouj and Khairuddin Barbarossa, who were able to perform it with unparalleled success, so they saved the cities of central Maghreb from the clutches of the Spanish. Khairuddin took the city of Algeria as the capital of his rule and didn't hesitate to include this region in the possessions of the Ottoman Sultanate, and it now bears the name of the Viceroyalty of Algeria.

The study relied on two main approaches: the historical approach and the analytical descriptive approach. It also reached a number of results, the most important of which are: that the Barbarossa brothers ruled aAlgeri direct delegation from the Ottoman Sultan, and became ministers of delegation with the approval of the Ottoman Sultanate. Thus: The new military state established in Algeria was a self-governing authority closely linked to the central government in Istanbul.

Keywords: Barbarossa brothers, Algeria, The Ottoman Sultanate, The Spanish, Charles V.

دور الأخوين بربروسّا في بسط النفوذ العثماني في المغرب الأوسط (الجزائر) (916-953هـ/1510-1546م)

الأستاذ الدكتور / أسامة محمد أبو نحل

كلية الآداب والعلوم الإنسانية | جامعة الأزهر | غزة | فلسطين

المستخلص: تناولت الدراسة، حالة الضعف والتفكُّك التي استشرت في بلاد المغرب الإسلامي عامةً، ومنطقة المغرب الأوسط (الجزائر) خاصّة التي أدّت إلى استغلال البرتغاليّين والإسبان الفرصة، لاحتلال عددٍ كبير من مدنها. وفي تلك الأثناء، وبمساعدةً من السلطنة العثمانيّة، برزت في الحوض الغربي للبحر المتوسّط، وفي المغرب الأوسط، ظاهرة الجهاد البحري الإسلامي التي هدفت إلى مساعدة مسلمي الأندلس الفارّين بدينهم من اضطهاد الإسبان من ناحية، والعمل على تحرير مدن المغرب الأوسط التي كان الإسبان قد احتلّوها عشيّة وبعد سقوط غرناطة من ناحيةٍ أخرى. وقد اضطلع بهذه المهمّة الأخوين (عروج)، و(خير الدين) بربروسّا اللذان تمكّنا من أداءها بنجاحٍ منقطع النظير، فخلّصا مدن المغرب الأوسط من براثن الإسبان. وقد اتخذ (خير الدين) من مدينة الجزائر عاصمةً لحكمه، وهو إلى ذلك لم يتوانَ في ضمّ هذه المنطقة إلى أملاك السلطنة العثمانيّة، وباتت تحمل اسم نيابة الجزائر.

واستعانت الدراسة بمنهجين رئيسين هما: المنهج التاريخي، والمنهج الوصفي التحليلي. كما توصّلت لعددٍ من النتائج، أهمّها: أن الأخوين بربروسّا قد حكما الجزائر بسلطة التفويض المباشر من السلطان العثماني، وباتا بمنزلة وزراء تفويض بموافقة السلطنة العثمانيّة. بالتالي: فإن الولاية العسكريّة الجديدة التي أُقيمت في الجزائر، كانت بمنزلة سلطة حكمٍ ذاتيّ، ذات ارتباطٌ وثيق بالحكومة المركزيّة في الآستانة.

الكلمات المفتاحيّة: الأخوين بربروسّا، الجزائر، السلطنة العثمانيّة، الإسبان، شارل الخامس.

المقدمة

تمهيد

قبل أن يتمكّن الإسبان من الاستيلاء على مملكة غرناطة، آخر معاقل المسلمين في الأندلس وفي أعقابه، كانوا قد استغلّوا حالة التفكُّك السياسي التي عانتها أرجاء بلاد المغرب الإسلامي كافة، في احتلال الكثير من مدنها. وفي تلك الأثناء، برز على مسرح العمليّات العسكريّة البحريّة في الحوض الغربي للبحر المتوسّط، أخوين مجاهدين هما الأخوين (عروج)، و(خير الدين) بربروسّا اللذان أخذا على عاتقهما، مهمّة مساعدة مسلمي الأندلس الفارّين بدينهم من ناحية. ومن ناحيةٍ أخرى، تخليص المدن التي استولى عليها الإسبان في منطقة المغرب الأوسط (الجزائر). كما تناولت الدراسة، دور الأخوين بربروسّا في مساعدة السلطنة العثمانيّة، لتبسط نفوذها على مناطقٍ شاسعةٍ من بلاد المغرب لا سيّما في المغرب الأوسط، وما قدّماه من جهودٍ برّيةٍ وبحريّةٍ في هذا الشأن.

أهميّة الدراسة

تكمن أهميّة الدراسة، من توضيح دور الأخوين بربروسّا في مساعدة السلطنة العثمانيّة في الحفاظ على عروبة بلاد المغرب. ثمَّ إن هذه الدراسة، تحاول أن ترفد المكتبات العربيّة بدراسةٍ نحسبها قراءة جديدة لهذا الموضوع المهم.

مشكلة الدراسة

يُعد موضوع مساعدة المسلمين للسلطنة العثمانية من الموضوعات المهمّة، كونها السلطنة التي تُعدَّ نفسها حامية للمسلمين، ونظرًا لبعد المسافة بين مركز هذه السلطنة في الآستانة عن بلاد المغرب، فقد برزت شخصيّاتٌ مهمّة أخذت على عاتقها مساعدة العثمانيّين، من أجل بسط نفوذها على بلاد المغرب.

ولقد كتب الكثير عن دور الأخوين بربروسّا في مساعدة العثمانيّين في مدّ نفوذهم في المغرب الأوسط، مع اختلاف وجهة نظر من تناول هذا الموضوع. فقد تناوله على سبيل المثال بعض الكتّاب الأجانب، منهم: (شارل أندري جوليان) (1983)، في كتابه الموسوم: (تاريخ أفريقيا الشمالية)، و(Edward Cat) (1889)، في كتابه الموسوم: (Petite Histoire de l'Algérie–Tunisie– Maroc)، و(H. D. De Grammont) (1887)، في كتابه الموسوم: (Histoire d' Alger sous la domination turque). ومن المراجع العربية، نجد (محمد درّاج) (2012)، في كتابه الموسوم: (الدخول العثماني إلى الجزائر ودور الإخوة بربروس)، و(خير الدين بربروس) (2010)، في كتابه الموسوم: (مذكرات خير الدين بربروس)، و(أحمد توفيق المدني) (ب.ت)، في كتابه الموسوم: (حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا). لذلك؛ ارتأينا ضرورة الكتابة عن دور هذين الأخوين في بسط النفوذ العثماني في المغرب الأوسط. وتدور مشكلة الدراسة في سؤالٍ رئيسٍ مفاده: ما دور الأخوين بربروسّا في بسط النفوذ العثماني في المغرب الأوسط؟

أهداف الدراسة

هدفت الدراسة لتوضيح الآتي:

1- الوقوف على تداعيات سقوط غرناطة في أيدي الإسبان.
2- بيان دور (عروج) في إرهاصات ضمّ المغرب الأوسط للنفوذ العثماني.
3- توضيح دور (خير الدين) في استكمال ضمّ المغرب الأوسط للنفوذ العثماني.

حدود الدراسة

- **الحد المكاني:** يمتدُّ الحد المكاني للدراسة في منطقة المغرب الأوسط (الجزائر حاليًا).
- **الحد الزماني:** تمتدُّ حدود الدراسة الزمنيّة ما بين عامي (916-953هـ / 1510-1546م)، أي منذ بداية النشاط البحري للأخوين بربروسّا في الحوض الغربي للبحر المتوسّط، حتى تاريخ وفاة (خير الدين).

منهجيّة الدراسة

اعتمدت الدراسة على منهجين رئيسين، هما:

- **المنهج التاريخي:** وهو منهجٌ، سوف يساعدنا في الحصول على المعلومات الأوليّة لموضوع الدراسة.
- **المنهج الوصفي التحليلي:** وذلك لتفسير المعلومات الخاصّة بدور الأخوين (عروج)، و(خير الدين) بربروسّا في بسط النفوذ العثماني في المغرب الأوسط، وتحليلها، وبيان أهميّتها وقيمتها العلميّة.

أولًا: تداعيات سقوط مملكة غرناطة في أيدي الإسبان

حريٌّ بنا قبل الحديث عن تداعيات سقوط غرناطة، الحديث عن الأسباب التي دفعت الإسبان والبرتغاليّين لاحتلال سواحل بلاد المغرب قبل سقوط غرناطة.

أ- أسباب الاحتلال الإسباني والبرتغالي لبعض سواحل بلاد المغرب قبل سقوط غرناطة

1- تفكُّك الدولة المركزيّة في بلاد المغرب

يُعدُّ سقوط دولة الموحّدين التي كانت تحكم بلاد المغرب الإسلامي في عام (664هـ / 1266م)، كارثةً كبرى أصابت الجناح الغربي الإسلامي، حيث قام على أثرها في بلاد المغرب دولٌ متنازعة. وفي الأندلس انتهز الإسبان والبرتغاليّين هذه الفرصة فاستعادوا نشاطهم، ممّا أدّى إلى انكماش دولة الإسلام بالأندلس، واقتصرت على مملكة غرناطة وملوكها بنو الأحمر [1]. ويُعدُّ هذا السبب، سببًا مباشرًا لتفكير الإسبان والبرتغاليّين في الاستيلاء على سواحل بلاد المغرب، وذلك لتحقيق جملةً من الأهداف الاستراتيجيّة التي كانا يطمحان لتحقيقها. وقد أدّى هذا الوضع إلى أن سقوط الأُسر المالكة الحفصيّة والزيانية والمرينية [2]، التي انغمست في حروبٍ داخليّةٍ طويلة مزمنة، أدّى في النهاية إلى مهاوي الانحطاط، ما سهّل مهمّة الإسبان والبرتغاليّين في احتلال البلاد، أو في توسيع مناطق نفوذهم فيها [3].

2- تنافس إسبانيا والبرتغال في التوسُّع خارج حدودهما

في الوقت الذي تقلّص فيه الوجود الإسلامي بالأندلس، اتسع نفوذ الإسبان حتى أصبحت غرناطة مُحاطة بممالكٍ مسيحيّةٍ معادية تتربّص بها الدوائر. وفي ذلك الوقت، بدأ البرتغاليّون في مهاجمة الشواطئ المراكشيّة، فيما عُرف باسم حركة الكشوف الجغرافيّة، فاستولوا على مدن: سبتة عام (818هـ / 1415م)، والقصر الكبير عام (861هـ / 1458م)، وطنجة عام (869هـ / 1464م)، وأصيلة عام (876هـ / 1471م) [4]، ما أدّى إلى عُزلة مسلمي الأندلس عن المساعدة التي قد تأتيهم من بلاد المغرب، فأصبحت غرناطة محصورة بأساطيل الإسبان، حتى استولوا عليها في عام (897هـ / 1492م) [5].

ووُصِف أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر الميلاديين، بأنهما عصر الملكيّات الجديدة، إذ وُجِد فيه ملوكٌ أقوياء، مثل: ملك إنكلترا (هنري السابع Henry VII)، وملك فرنسا (لويس الحادي عشر Louis XI) اللذان كرّسا جهودهما، لخلق دولةً

(1)- شلبي، أحمد (1995)، ***موسوعة التاريخ الإسلامي***، ج4، ط10، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ص162، جوليان، شارل أندري (1983)، ***تاريخ أفريقيا الشمالية: تونس، الجزائر، المغرب الأقصى من الفتح الإسلامي إلى سنة 1830م***، تعريب: محمد مزالي، والبشير بن سلامة، ج2، ط2، تونس: الدار التونسية للنشر، ص156-157.

(2)- أدّى سقوط دولة الموحّدين في بلاد المغرب إلى تقاسم الحكم بين ثلاث دول إقليميّة: بني حفص في المغرب الأدنى (تونس)، وبني زيان في المغرب الأوسط (الجزائر)، وبني مرين في المغرب الأقصى (مراكش). وينتسب الحفصيّون إلى (أبي حفص عمر بن يحيى الهنتاني)، ويرجع نسبه إلى قبيلة هنتانة، وهي قبيلة بربريّة كبيرة تلتحق بالمصامدة التي تُعدّ من أكبر قبائل المغرب الأقصى. أمّا بنو زيان فقد قامت دولتهم بمدينة تلمسان في عام (632هـ / 1235م)، وتعرّضت دولتهم لهجمات الحفصيّين والمرينيّين، ولغزوات القبائل من الجنوب، وكان أوّل حكّامها (يغمراسن بن زيان بن ثابت) الذي استقلَّ بحكم تلمسان عن حكم الموحّدين. بينما ينتسب بنو مرين فينسبون إلى قبيلة زناتة، وموطنهم الأصلي في المناطق الصحراويّة ما وراء تلمسان. ولقد استقلَّ بنو مرين عن الموحّدين، وكان (يعقوب بن عبد الحق) المؤسّس الحقيقي لهذه الدولة.

لمزيد من التفاصيل انظر: الجمل، شوقي عطا الله (1977)، ***المغرب العربي الكبير في العصر الحديث***، ط1، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ص26-35.

(3)- المدني، أحمد توفيق (ب.ت)، ***حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا 1492-1792***، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ص67؛ الزياني، محمد بن يوسف (2013)، ***دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران***، تحقيق وتقديم: الشيخ المهدي البوعبدلي، ط1، الجزائر: عالم المعرفة للنشر والتوزيع، ص143-157.

(4)- روجر، ب. ج. (1981)، ***تاريخ العلاقات الإنكليزية المغربية حتى عام 1900***، ترجمة: د. لبيب يونان رزق، ط1، الدار البيضاء: دار الثقافة، ص67؛ ايفانوف، نيقولاي (1988)، ***الفتح العثماني للأقطار العربية 1516-1574***، ترجمة: ياسر عطا الله، ط1، بيروت: دار الفارابي، ص32.

(5)- رضوان، نبيل عبد الحي (1988)، ***جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس واسترداده في مطلع العصر الحديث***، ط1، الرياض: مكتبة الطالب الجامعي، ص60-61، 70-71.

موحّدة مركزيّة تحت السيطرة الملكيّة. ثمَّ اتفق الملكان (فرديناند الخامس Ferdinand V) ملك "قشتالة Castile"، والملكة (إيزابيلا Isabella) ملكة "أراغون Aragon"، على دمج ممالكهما معًا في مملكةٍ واحدة موحّدة (مملكة إسبانيا) [6].

اجتمعت سياسة الغدر والانتهازيّة لدى الملك الإسباني (فرديناند)، مع النزعة الدينيّة المتعصّبة للملكة (إيزابيلا) ضدَّ مملكة غرناطة التي كان أهلها قد تنازعوا فيما بينهم [7]. وكان (فرديناند) قد أرسل جاسوسًا إلى بلاد المغرب العربي في عام (899هـ / 1494م)، فأرسل هذا إلى ملكه تقريرًا جاء فيه: إن كامل بلاد المغرب تجتاز فترةً من الانهيار السياسي، ويظهر معها أن الله قد أراد أن يجعل تلك البلاد ملكًا لصاحبي الجلالة المسيحيّة. غير أن (فرديناند) خشي أن يؤدّي طرد ملك غرناطة إلى مراكش، لردّ فعلٍ عنيف من جانب حكّام بلاد المغرب، لكنَّ الكاردينال (خمينيس) (كسمناس دي سيسنيروس Ximenez de Cisneros)، أقنعه بعدم وجود أي خطرٍ من وراء هذه الخطوة [8].

وكان لدى حكّام إسبانيا الجدد رغبةً مُلحّة في التوسُّع، وبسط النفوذ خارج حدودها التقليديّة لبناء إمبراطوريّةٍ مترامية الأطراف، هدفها السيطرة على أكبر عددٍ من المستعمرات، فتمكّنا خلال فترةً وجيزة من القضاء على الوجود الإسلامي في الأندلس، قبل أن تمتدَّ أطماعهما إلى احتلال بلاد المغرب، بدليل الخطوات التي اتخذتها الملكة (إيزابيلا) لاحتلال مدينة تلمسان، وذلك بإرسالها (لورينثو دي باديا Lorenzo de Padilla)، حاكم مدينة القلعة في الأندلس، في مهمّةٍ تجسّسيّةٍ لاستطلاع أحوالها، وذلك في عام (898هـ / 1493م)، ثمَّ وصيتها لمن سيخلفها ضرورة محاربة الكُفّار (المسلمين) [9]، أو ما تمَّ تسميّته -وقتذاك -بحرب الإيمان ضدَّ المسلمين [10]، حيث اعتبر حكّام إسبانيا الجدد ما يقومون به من تنصيرٍ لمسلمي الأندلس، أو طردهم من بلادهم فيما أسموه بحرب الاسترداد من جهة، ثمَّ مهاجمة بلاد المغرب ومحاولة استعماره من جهةٍ أخرى، هو حرب دينيّة لفرض المسيحيّة على سكّان تلك البلاد.

وأثارت مشكلة السباق بين إسبانيا والبرتغال لاحتلال بلاد المغرب صراعًا بين الدولتين، كاد أن يؤدّي إلى اندلاع الحرب فيما بينهما، غير أن البابا (إسكندر بورجيا السادس Alexander VI Borgia)، تدخّل في الأمر من أجل اقتسام النفوذ في العالم بينهما، وفقًا لمعاهدة "توردیسیلاس Tordesillas" في عام (899هـ / 1494م)، التي قسّمت المناطق التي تمَّ اكتشافها بين الدولتين، حيث فازت إسبانيا بالسيطرة على الأراضي المكتشفة غرب الخط الذي رسمه البابا، في حين حصلت البرتغال على حقوق ملكيّة أراضٍ جديدة في الشرق [11]. وأعقب ذلك، الاتفاق على اقتسام بلاد المغرب بينهما، وفقًا لمعاهدة "فيلا فرنكا Vilafranca" في عام (915هـ / 1509م) التي نصّت على منح المغرب الأقصى (مراكش) للبرتغال، مقابل حصول إسبانيا على المغربين الأوسط والأدنى (الجزائر، وتونس، وطرابلس) [12].

وممَّا سبق ذكره، يتضح لنا أن حالة الضعف والتفكّك التي استشرت في بلاد المغرب، مهّدت الطريق أمام الإسبان والبرتغاليّين لاحتلال بعض المدن في تلك البلاد من جهة، وسرّعت من مهمّة الإسبان في تطويق غرناطة توطئةً للاستيلاء عليها.

3- العاملان الديني والاقتصادي

لقد دفع التعصُّب والتحمُّس الديني، والرغبة في نشر المسيحيّة، وزحزحة حدود الإسلام لدى الإسبان، منذ أواخر القرن الخامس عشر وطوال القرن السادس عشر الميلاديّين، إلى التدخُّل في شؤون بلاد المغرب. فالكنيسة الإسبانيّة، ساهمت بكل ما لديها من

---

(6)- Elliott (J. H.) (2002), ***Imperial Spain 1469-1716***, London: Penguin Group, p. 56.

(7)- يحياوي، جمال (2004)، ***سقوط غرناطة ومأساة الأندلسيين 1492-1610م***، الجزائر: دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، ص34.

(8)- العسلي، بسام (1980)، ***خير الدين بربروس والجهاد في البحر 1470-1547م***، ط1، بيروت: دار النفائس، ص56-57؛ وولف، جون، ب. (2009)، ***الجزائر وأوروبا 1500-1830***، ترجمة وتعليق: أبو القاسم سعد الله، الجزائر: دار الرائد، وعالم المعرفة، ص24؛

Braudel (Fernand) (1928), "**les Espagnols en Afrique du Nord de 1492 à 1577**", *Revue africaine*, No. 69, pp. 211-212.

(9)- ابلالي، أسماء (2017)، **"التحرشات الإسبانية على سواحل الجزائر خلال القرن 10هـ/ 16م: قراءة في الدوافع والنتائج"، الجزائر:** *مجلة روافد للبحوث والدراسات*، جامعة غرداية، المجلد 2، العدد 1، ص37؛ فكاير، عبد القادر (2011)، "**الغارات الإسبانية على مدينة تلمسان خلال النصف الأول من القرن السادس عشر**"، *مجلة عصور الجديدة*، العدد 2، ص231؛

De Grammont (H. D.) (1887), **Histoire d' Alger sous la domination turque (1515-1830)**, Paris: Ernest Leroux, Editeur, p. 4; Fey (Henri- Léon) (1858), **Histoire D'Oran avant, Pendant et Après La Domination Espagnole**, Oran: Typographei Adolphe Perrier Éditeur, p.67.

(10)- Elliott, op. cit, p.41.

(11)- لمزيد من التفاصيل، انظر:

Linden (H. Vander) (October 1916), "**Alexander VI. And the demarcations of the Maritime and Colonial Domains of Spain and Portugal, I493-I494**", The American Historical Review, Vol. XXII, No. 1.

(12)- العسلي، ***خير الدين بربروس والجهاد في البحر***، ص58.

حماسٍ بأن جعلت منها معركة خاصّة بها [13]. فقد عجّل سقوط غرناطة بانطلاق الطاقات الإسبانيّة نحو مغامرات ما وراء البحار، وكانت أفريقيا وخصوصًا بلاد المغرب على قربها الشديد، الاختيار المنطقي القوي في هذه الاستراتيجيّة. وفي الوقت نفسه؛ فإن هجرة مسلمي الأندلس (الموريسكيّين) قد خلقت التأزُّم، ووفرّت سببًا لتبرير التدخُّل الإسباني [14]. ولقد استغلّت الكنيسة الكاثوليكيّة في إسبانيا حالة التفكّك السياسي في بلاد المغرب، لكي تتملّص من التعهُّدات الدينيّة والاجتماعيّة التي قطعها حكّام إسبانيا الجدد في وثيقة تسليم غرناطة مع آخر ملوكها من المسلمين، فأخذت الكنيسة في نقض ما تمَّ الاتفاق عليه، وذلك بإنشاء ما سُمي بمحاكم التفتيش، لفرض التنصُّر على مسلمي الأندلس، وطرد من يرفض ذلك إلى خارج البلاد قسرًا [15].

وفي تلك الأثناء، كانت إسبانيا قد تعرّضت إلى انهيارٍ اقتصاديٍّ كبير، بعد طرد المسلمين واليهود من الأندلس، حيث كانوا يشكّلون العمود الفقري لاقتصاد البلاد، فتعطّل الإنتاج ما دعا حكّامها الجدد إلى اكتساح بلاد المغرب [16]. ففي نشوة النصر الذي حقّقه الإسبان، وبسبب الأوضاع الاقتصاديّة المتردّية، أرادوا أن يواصلوا زحفهم لاحتلال بلاد المغرب، مستغلّين ضعف حكّامها. فتعرّضت بلاد المغرب لحملاتٍ متتابعة من قِبل الاسبان والبرتغاليين، نجح بعضها في احتلال بعض بقاعه. فاحتلَّ الإسبان مدن: بونة (عنابة) في عام (867هـ / 1462م)، ومليلة عام (902هـ / 1497م)، وغساسنة عام (909هـ / 1504م)، والمرسى الكبير عام (910هـ / 1505م)، وتنس عام (912هـ / 1507م)، وحجر باديس عام (913هـ / 1508م)، ووهران عام (914هـ / 1509م)، وبجاية عام (916هـ / 1510م) [17]. كما استولوا على طرابلس الغرب في العام نفسه، وعلى مدينة الجزائر التابعة لسلطنة بجاية، ومستغانم عام (917هـ / 1511م). وفي المقابل، كان البرتغاليّون قد احتلّوا بعض جهات السوس، ومازكان (الجديدة) في عام (907هـ / 1502م)، وأغادير عام (910هـ / 1505م)، وآسفي عام (913هـ / 1508م)، وآزمور عام (919هـ / 1513م)، كما أنشئوا على سواحل مراكش حصونًا ومعاقل كثيرة [18].

وبذلك، رسّخت إسبانيا لنفسها موطئ قدم في بلاد المغرب، كانت نِقاط ارتكازٍ أماميّة منعزلة للدفاع عن سواحلها الخاصّة، كما شيّدت سلسلة من القلاع على طول السواحل المغربيّة. ولكن تحوُّل الأحداث في إيطاليا، جعلت الملك (فرديناند) يُهمل في مسألة تمديد دفاعاته في بلاد المغرب، والاستيلاء على الأجزاء الداخليّة منها، ما دعا الإسبان فيما بعد إلى الخمول، والاكتفاء بالاستيلاء على الشريط الساحلي الضيّق، ممَّا تسبّب في قيام حركة الجهاد البحري، انطلاقًا من القواعد المقامة على امتداد الساحل [19].

وبدوره، ارتدَّ الاحتلال الإسباني لسواحل المغرب الأوسط وخصوصًا مدينة الجزائر، بشكلٍ سلبيٍّ على مسلمي الأندلس المضطهدين، إذ لم تعد موانيها قادرة على إرسال الإمدادات إليهم، والتخفيف عنهم، نظرًا لأن الإسبان كانوا قد فرضوا على أمراء وأعيان الموانئ، التعهُّد بعدم السماح لأي سفينةٍ بالانطلاق للإغارة على السفن الإسبانيّة، وعدّتهم مسؤولين عن أي إخلالٍ بذلك. كما اتفق حكّام المغرب الأوسط والإسبان، على أن يُسلِّم هؤلاء الحكّام أكبر جزرهم الصخريّة التي تُسمّى (اسطفلة) قبالة مدينة الجزائر للإسبان، ليقيموا عليها معقلًا يحرس تجارتهم، ويضمن حريّة مواصلاتهم البحريّة، ويجعل المدينة تحت رحمة مدافعهم. وسرعان ما ابتنى الإسبان القلعة البحريّة (البينون Penôn) [20]، التي أصبحت تُدعى صخرة الجزائر على أنقاض منارٍ إسلاميٍّ قديم [21].

---

(13)- Braudel op. cit, pp.198-199, 201.

(14)- سبنسر، وليم (2006)، ***الجزائر في عهد رياس البحر***، تعريب وتعليق: د. عبد القادر زبادية، الجزائر: دار القصبة للنشر والتوزيع، ص34.

(15)- برّاتشينا، دون باسكوال بورونات إي (2012)، **الموريسكيون الإسبان ووقائع طردهم**، الكتاب الأول من الجزء الأول، ترجمة: د. كنزة الغالي، ط1، بيروت: مطابع دار الكتب العلمية، ص113-114.

(16)- فكاير، عبد القادر (2008-2009)، **أثار الاحتلال الإسباني خلال العهد العثماني (10-12هـ / 16-18م)**، *رسالة دكتوراه غير منشورة*، الجزائر: جامعة الجزائر 2، ص16.

(17)- دراج، محمد (2012)، ***الدخول العثماني إلى الجزائر ودور الإخوة بربروس 1512-1543***، ط1، الجزائر: شركة الأصالة للنشر والتوزيع، ص67، 102-113؛ الجيلالي، عبد الرحمن بن محمد (1965)، ***تاريخ الجزائر العام***، ج2، ط2، الجزائر: مكتبة الشركة الجزائرية، بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة، ص194.

(18)- جوليان، ***تاريخ أفريقيا الشمالية***، ص255؛ روجر، ***تاريخ العلاقات الإنكليزية المغربية***، ص37، المزاري، عودة (1990)، **طلع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر**، تحقيق ودراسة: د. يحي بوعزيز، ط1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ص216.

(19)- Lynch (John) (1981), ***Spain Under the Habsburgs, Empire, and absolutism, 1516-1598***, Vol. 1, Oxford: Basil Blackwell, P. 93; Elliott, op. cit, p. 42.

(20)- **البينون:** مصطلح يُطلق على الجزر الساحليّة والرؤوس الداخلة في البحر، اعتاد الإسبان أن يقيموا عليها قلاعًا حصينة تهدّد سكّان الساحل، وتمنع في الوقت نفسه وصول سفن المسلمين.
رضوان، ***جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس***، ص288.

4- الدافع الاستراتيجي العسكري

كان البحر المتوسّط يتمتّع بموقعٍ استراتيجيٍّ مهم بالنسبة لقارات العالم الثلاث التي تحيط به، إلى جانب انفتاحه على المحيط الأطلسي في جهته الغربيّة. فكانت الدول المطلّة عليه تسعى على الدوام للفوز بمكانةٍ متميّزة، تجعلها تنفرد بفرض هيمنتها عليه، أو في الأقل أن يكون لها نصيبٌ في السيطرة على خطوط ملاحة السفن فيه، أو احتلال المواقع البرّية الرئيسة المطلّة عليه. ومن هذه الزاوية، سعى الملوك الإسبان إلى احتلال المغرب الأوسط وبقيّة بلاد المغرب الأخرى الواقعة على الضفة الجنوبيّة لهذا البحر، حتى تتمكّن من فرض هيمنتها على جزؤه الغربي، والتحكُّم في مدخله المتصل بالمحيط الأطلسي عبر مضيق جبل طارق الذي بدأ الإبحار فيه نحو العالم الجديد، ضرورة اقتصاديّة تستدعي الهيمنة عليه. فقد بدأ اكتشاف الإسبان العالم الجديد في عام (897هـ / 1492م). وفي عام (902هـ / 1497م)، تبعهم البرتغاليّون فاكتشفوا رأس الرجاء الصالح، ما وجّه أنظار الأوروبيّين -لاحقًا -وبصفةٍ خاصّة إسبانيا والبرتغال، حيث قامت هاتان الدولتان باكتشاف الطرق البحريّة المؤدّية إلى الأمريكيتين الشماليّة والجنوبيّة، وإلى الهند والصين. ولمّا كانت بلاد المغرب لها واجهتان؛ الأولى على البحر المتوسّط، والثانية على المحيط الأطلسي. فقد لعبت هاتان الواجهتان دورًا رئيسًا في اتجاه الإسبان نحو الأمريكيتين، في حين انطلق البرتغاليّون نحو رأس الرجاء الصالح للطواف حول أفريقيا، ومن ثمَّ نحو قارة آسيا [22].

ب- تداعيات سقوط غرناطة في أيدي الإسبان على بلاد المغرب

ترتّب على الاحتلال الإسباني لسواحل المغرب الأوسط، التدخُّل العثماني لحماية هذه السواحل، وطرد الإسبان منها، استجابةً لواجب الدفاع عن البلاد الإسلاميّة من جهة، ولاستغاثة سكّان هذه السواحل المتتالية في ضرورة الإسراع بنجدتها، قبل أن يؤول أمرها إلى ما آل إليه أمر الأندلس [23].

وغداة سقوط غرناطة في أيدي الإسبان، تعرّض مسلمي الأندلس لشتّى صنوف الاضطهاد والتنكيل، ما دفع الآلاف منهم للهجرة صوب بلدان المغرب، وكان للمغرب الأوسط الحظ الأوفر من هذه الهجرة. وانطلق المهاجرون الأندلسيّين بمساعدة إخوانهم من مسلمي بلاد المغرب، يشنّون الغارات المتتالية على السفن والسواحل الإسبانيّة، أو المتحالفة معها، انتقامًا لأنفسهم ولإخوانهم المضطهدين في الأندلس من الإسبان الذين آذوهم في أنفسهم، وأكرهوهم على التنصُّر، أو مغادرة بلادهم إلى الأبد [24]. وكان أهالي مدينة وهران يسلّحون مراكب وسفنًا صغيرة مسلّحة لغزو سواحل "قطلونية" (كتالونيا Catalonia)، وجزر "إيبيزا Ibiza"، و"مينورقة Menorca"، و"ميورقة Mallorca"، حتى صارت المدينة تغصُّ بالرقيق المسيحيّين، وهو الشيء نفسه الذي كان يقوم به أهالي مدينة الجزائر [25].

وكذلك، استنجد مسلمي الأندلس بالسلاطين العثمانيّين في الآستانة، والمماليك في القاهرة، فكانت الغارات التي قام بها البحّارة المسلمون، انطلاقًا من سواحل المغرب الأوسط على إسبانيا أو غيرها، تندرج ضمن واجب الدفاع عن المستضعفين في الأندلس، والضغط على السلطات الإسبانيّة لإجبارها على تخفيف قبضتهم ضدَّهم. وبذلك؛ تحوّلت هذه الغارات ضدَّ السفن والممتلكات الإسبانيّة إلى نشاطٍ أساسيٍّ من أنشطة سواحل بلاد المغرب، ما حدا بالبحّارة الأتراك أن يولّوا وجوههم صوب السواحل الغربيّة للبحر المتوسّط للغرض نفسه [26].

وممَّا سبق بيانه، يتضح لنا أن ما تعرّضت له إسبانيا من انهيارٍ اقتصاديٍّ كبير، بعد طرد المسلمين واليهود من الأندلس، أدّى إلى حدوث أزمةٍ اقتصاديّةٍ خانقة، ما دعا حكّامها الجدد إلى احتلال عددٍ كبير من مدن بلاد المغرب الساحليّة.

---

(21)- المدني، ***حرب الثلاثمائة سنة***، ص126-128.

(22)- فكاير، عبد القادر (2012)، ***الغزو الإسباني للسواحل الجزائرية 910-1206هـ /1505-1792م***، الجزائر: دار هومة، ص19.

(23)- دراج، ***الدخول العثماني إلى الجزائر***، ص136.

(24)- بن خروف، عمار (1983)، **العلاقات بين الجزائر والمغرب 923-1069هـ / 31517-1659م**، *رسالة ماجستير غير منشورة*، دمشق: جامعة دمشق، ص20؛ الصباغ، ليلى (سبتمبر - أكتوبر 1975)، **"ثورة مسلمي غرناطة عام (976هـ أواخر عام 1568م) والدولة العثمانية"**، الجزائر: *مجلة الأصالة*، العدد 27، ص119.

(25)- الوزان الفاسي، الحسن بن محمد (1983)، ***وصف أفريقيا***، ترجمة: محمد حجي؛ محمد الأخضر، ج2، ط2، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ص30، 38.

(26)- دراج، ***الدخول العثماني إلى الجزائر***، ص125.

ثانيًا: دور (عروج) في إرهاصات ضم المغرب الأوسط [27] للنفوذ العثماني

تمهيد:

لم يمد العثمانيّون نفوذهم إلى بلاد المغرب بواسطة غزوٍ عسكري، كما حدث من قبل في العراق وبلاد الشام ومصر؛ بل جاء نتيجةً لاشتداد الصراع بين الإسلام والمسيحيّة في الحوض الغربي للبحر المتوسّط، في أوائل القرن السادس عشر. فهذا الصراع على أهميّته، استقطب عددًا كبيرًا من البحّارة الذين نشئوا في خدمة الأسطول العثماني في البحر المتوسّط، ثمَّ عمدوا لتكوين أساطيل صغيرة خاصة بهم للجهاد ضدَّ أعداء الدين في الوقت نفسه. وكان هؤلاء البحّارة المغامرون يُعدّون في نظر المسلمين أبطالًا وطنيّين، وفي نظر خصومهم قراصنة بحار، ومن بين هؤلاء الأخوين (عروج) [28]، و(خير الدين) بربروسّا اللذان نشأ بجزر الأرخبيل في شرق البحر المتوسّط، حيث تقع أهم قواعد الأسطول العثماني، وكان يحشد لخدمته بحّارة من الأتراك، بجانب عددٌ كبير من العناصر البلقانيّة التي اعتنقت الإسلام [29].

وبمعنى آخر؛ فإنه عندما اكتشف الأوروبيّون العالم الجديد في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي، كانت الفرصة مواتية لبروز مغامرين مستقلّين؛ كالأخوين بربروسّا الذين جلبهما القدر للظهور في الحوض الغربي للبحر المتوسّط، ثمَّ امتداد نشاطهما إلى المغرب الأوسط، من أجل رفع شأن الإسلام في تلك المناطق، وكان هذا واضحًا انطلاقًا من شعورهم بالتضامن العربي التركي، حيث ينتمي هذين العنصرين إلى دينٍ واحد هو الإسلام، ومذهبٍ واحد هو المذهب السُّني [30].

وكان (عروج) قد اتفق مع سلطان تونس الحفصي (أبو عبد الله محمد بن الحسن)، في عام (916هـ / 1510م)، على جعل ميناء جربة قاعدةً ينطلق منها في غزواته البحريّة، على أن يدفع له خُمس الغنائم التي يحصل عليها. وبسبب اتساع دائرة حروبه مع أوروبا، وفقدانه لعددٍ من البحّارة الذين يعملون تحت خدمته، لجأ إلى استقدام عددٍ من الشباب التركي القادمين من الأناضول، وكان هذا من أحد الأسباب التي جعلته يتقرّب من السلطان (سليم الأول) [31].

ولقد جاء ضم المغرب الأوسط إلى الممتلكات العثمانيّة، نتيجةً لحربٍ طويلة شرسة خاضها سكّانها بدعمٍ من العثمانيّين ضدَّ الاستبداد الإقطاعي، والسيطرة الأجنبيّة. وكان العثمانيّون قد لعبوا في المغرب -للمرّة الأولى -دورًا عسكريًّا وسياسيًّا فعّالًا عام (891هـ / 1486م)، عندما وصل أسطول (كمال رئيس) بأمرٍ من السلطان (بايزيد الثاني)، لمساعدة المسلمين في الأندلس. ومنذ ذلك الحين، ظلّت

---

(27)- إن المقصود بمنطقة المغرب الأوسط، تلك المنطقة التي باتت تحمل اسم الجزائر رسميًّا بعد استيلاء (خير الدين بربروسّا) على قلعة البينون قبالة مدينة الجزائر من الإسبان في عام (935هـ / 1529م).

(28)- يُعدَّ (عروج) الأخ الثاني في أسرة بربروسّا بعد (إسحق رئيس). وقد لعب (عروج) دورًا أساسيًّا في تمهيد الطريق أمام أخيه (خير الدين) من بعده، في بسط نفوذ العثمانيّين بالمغرب الأوسط. وقد وُلِدَ (عروج) في جزيرة "ميدلّي Midilli" التي استقرَّ بها والده (يعقوب أغا) الذي كان أحد جنود السباهيّة. وعُرف هذين الأخوين باسم بربروسّا ربما بسبب شقرة لحيتهما، أو لأن البحّارة الأتراك كانوا يدعون (عروج) باسم (بابا عروج) على سبيل الاحترام. وكان (عروج) مع أخيه (خير الدين)، يبيعان الفخّار لأبيهما في جزر اليونان بواسطة بعض المراكّب.

دراج، ***الدخول العثماني إلى الجزائر***، ص150-153؛ De Grammont, op. cit, p. 317

ولقد ذكر الراهب الإسباني (فراي دييغو هايدو Fry Diego de Haedo)؛ بأن اسم (عروج) هو اسمه الحقيقي وهو من أصلٍ يوناني، ومولده كان بجزيرة "ميلتان Mythene"، وتُلفظ بالتركيّة ميدلّي، وأن أبوه كان مسيحيًّا يُدعى يعقوب، فقيرًا وربّ عائلة كبيرة، مارس مهنة صناعة الخزف الطيني، ففكّر (عروج) في مساعدة عائلته، وراح يحاول الكسب بنفسه. ثمَّ جاءت سفينة من مجاهدي الأتراك ترسو بمرفأ الجزيرة، وكان (عروج) يرى أن الفرصة قد حانت، حيث راح يبحث عن قبطان السفينة وألحَّ عليه أن يكون ضمن طاقمه، وأنه يريد أن يعتنق الإسلام. وقد رأى القبطان فيه الذكاء، وأنه صاحب إرادة قويّة فقبله ضمن طاقمه. وهكذا، بدأت رحلته في البحر، وكان قد بلغ من العمر (20) سنة.

هايدو، فراي دييغو (2013)، ***تاريخ ملوك الجزائر***، ترجمة: أبو لؤي عبد العزيز الأعلى، ط1، الجزائر: دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، ص9.

(29)- العقاد، صلاح (1993)، ***المغرب العربي في التاريخ الحديث والمعاصر***، ط6، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ص18.

(30)- Vatin (Nicolas) (2012), "**Arabes et Turcs au Maghreb dans les Années 1513-1520**", *Osmanlı Araştırmaları (The Journal of Ottoman Studies)*, X, pp. 365, 368, 369.

(31)- بربروس، خير الدين (2010)، ***مذكرات خير الدين بربروس***، ترجمة: د. محمد دراج، ط1، الجزائر: شركة الأصالة للنشر والتوزيع، ص46؛ المطوي، محمد العروسي (1986)، ***السلطنة الحفصية: تاريخها السياسي ودورها في المغرب الإسلامي***، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ص673.

السفن العثمانيّة راسيةً بصورةٍ دائمة في مياه غرب البحر المتوسّط تهاجم السفن التجاريّة الأوروبيّة، أو تنقل الأسلحة إلى مسلمي الأندلس، وأحيانًا تدافع عن موانئ بلاد المغرب ضدَّ هجمات المستعمرين الأوروبيّين [32].

ومن أهم الأسباب التي دعت السلطنة العثمانيّة، لتوجيه أنظارها نحو منطقة المغرب الأوسط تحديدًا، اقتناع السلطان (سليم الأول)، بما جاء في رسالة (أحمد) ابن القاضي الفقيه (أبو العبّاس أحمد بن القاضي الزواوي)، التي بعث بها إلى (عروج)، وذكر فيها: "إن بلادنا بقيت إليك أو لأخيك (خير الدين) أو للذئب (الإسبان)" [33]، كما سيأتي بيانه.

ويستشف من محتوى هذه الرسالة، أن بعض زعماء المغرب الأوسط، عندما راسلوا (عروج) لم يهتمّوا كثيرًا للبُعد الإثني بينهم كعرب، والعثمانيّين الأتراك، وأنه في ذاك الوقت لم يكن ثمة تمايز بين القوميتين، ما دامت الغاية التي تجمعهما نصرة الإسلام من ناحية، وتخليص المدن الإسلاميّة المغربيّة من براثن الإسبان من ناحيةٍ أخرى، وأن استجابة (عروج) لطلب (ابن القاضي)، تنمُّ عن عقليّة فذة لقائدٍ استثنائي لمرحلةٍ استثنائيّة من ناحيةٍ ثالثة.

1. بدايات تدخل (عروج) في شؤون المغرب الأوسط

عاشت المغرب الأوسط في نهاية القرن الخامس عشر، وبداية القرن السادس عشر الميلاديّين، انقسامًا سياسيًّا حادًّا بين إماراتٍ عدّة مفكّكة ومتناحرة فيما بينها. ولقد استطاعت كلّ واحدةٍ منها تكوين وحدةً مستقلّة بذاتها، مستغلّين في ذلك الوضع شديد الخطر الذي آلت إليه دولة بني زيان التي لم يلتفت سلاطينها، للظروف الصعبة التي كانت تمرُّ بها [34].

ومهما يكن من أمر، أصبحت دولة بني زيان مطعمًا للإسبان الذين تمكّنوا من استغلال الصراع الدائر بين السلطان (أبو حمّو الثالث)، وابن أخيه (أبو زيان المسعود)، فاستولى الأخير على تنس بمساعدة الإسبان ونودي به سلطانًا، كما احتلّ الإسبان المرسى الكبير عام (910هـ / 1505م). وبدت دولة بني زيان خلال هذه المدّة -وقد أنهكتها الحروب والصراعات المتواصلة، سواءً بين أبناء البيت الواحد، أو مع القبائل الرافضة لسلطتهم، والراغبة في الاستقلال؛ كقبائل: مغوارة، وتوجين، ومليكش، وحصين، وغيرها، ممَّا أدّى إلى استنزاف خزانة الدولة، واستبقوا سلطتهم فقط في تلمسان وغربها بعناءٍ كبير. وبذلك، انقسمت البلاد بين مملكتي بني حفص وبني زيان إلى عددٍ لا يُحصى من إماراتٍ وقبائل، أو مجموعاتٍ مستقلّة [35].

وخلال عامي (914 و916هـ / 1509 و1510م)، أصبحت منطقة المغرب الأوسط الممزّقة والخاضعة للقبائل فريسةً سهلة للإسبان، فتمكّنوا من إخماد كل البؤر الأساسيّة للمقاومة بسهولة، وتحقيق انتصارٌ باهر، لا سيّما بعد استيلاء الكونت (بيدرو دي نافارو Pedro de Navaro) على مدينة وهران عام (914هـ / 1509م)، وأشرف فيها الكاردينال (خمينيس) على قتل نحو أربع آلاف، وأسر ثماني آلاف آخرين، وتحويل مسجدين فيها إلى كنيستين، ثمَّ استحواذه على مدينة بجاية عام (916هـ / 1510م) بعد مقاومةٍ رمزية بين الطرفين لم تكن متكافئة، وكذلك استيلائه على طرابلس الغرب في العام نفسه [36]. لكن الإسبان لم يحاولوا التوغُّل داخل المغرب الأوسط، واكتفوا بفكرة نظام الاحتلال المحدود، حيث جعلوها في المرتبة الثانية في سلّم أولوياتهم، فحوّلوا المراسي المحتلّة إلى مراكزٍ محصنّة ذات جدرانٍ عظيمة تقيم فيها حامياتهم، وتركوا ما عداها إلى الأهالي بِما فيها الضواحي، حيث أولى الملك (فرديناند) فكرة الاستحواذ على إيطاليا اهتمامًا أكبر [37].

وبسبب حالة الضعف السياسي، والتجزئة الإداريّة والقبليّة للمغرب الأوسط، يرجع الفضل إلى الأخوين بربروسّا في وضع حدًّا لثورات القبائل، وأن يتمكّنا فيما بعد من إرساء استراتيجيّةٍ وتحالفٍ بين العثمانيّين وشيوخ الطرق الدينيّة ضدَّ عدوّهما المشترك (الإسبان). وأدّى النجاح الذي تحقّق إلى تبنّي تصوُّرٍ سياسيٍّ مستقبلي، يقضي بربط المغرب الأوسط بالسلطنة العثمانيّة، وهو الارتباط الذي رغب فيه؛ بل وطالب به عن طواعية، سكّان مدينة الجزائر الذين كانت تقضُّ مضاجعهم الضربات والهجمات الإسبانيّة ضدَّهم [38].

---

(32)- ايفانوف، ***الفتح العثماني للأقطار العربية***، ص95.

(33)- شعيب، بن علي محمد المهدي (1980)، ***أم الحواضر في الماضي والحاضر: تاريخ مدينة قسنطينة***، الجزائر: مطبعة البعث، ص54-57.

(34)- شقدان، بسام كامل (2002): **تلمسان في العهد الزياني 633-962هـ / 1235–1555م**، *رسالة ماجستير غير منشورة*، نابلس: جامعة النجاح الوطنية، ص248؛ الوزان الفاسي، ***وصف أفريقيا***، ص35-36.

(35)- بوزياني، الدراجي (1993)، ***نظام الحكم في دولة بني عبد الواد الزيانية***، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، ص205؛ جوليان، ***تاريخ أفريقيا الشمالية***، ص321-322.

(36)- ايفانوف، ***الفتح العثماني للأقطار العربية***، ص98؛ الجيلالي، ***تاريخ الجزائر العام***، ج2، ص198-199؛ Fey, op. cit, p. 71, 74

(37)- جوليان، ***تاريخ أفريقيا الشمالية***، ص324.

(38)- التميمي، عبد الجليل (يوليو 1976)، "**أول رسالة من أهالي مدينة الجزائر إلى السلطان سليم الأول سنة 1519**"، تونس: *المجلة التاريخية المغربية*، العدد 6، ص116-120.

وعليه، اتجه المسلمون لمقاومة الخطر الإسباني، عن طريق الهجوم الخاطف بالبحر المتوسّط، أو ما يمكن تسميته المقاومة البحريّة، أو الجهاد البحري. فظهر في عام (916هـ / 1510م)، الأخوين (عروج) و(خير الدين) الذين كان لهما سلطانٌ شامل على الحوض الغربي لهذا البحر، وكانا قد استوليا على بعض جزره وشواطئه المهمّة، حيث اتخذاها مراكزٌ لنشاطهم البحري، ومنها جزيرة جربة المجاورة لساحل طرابلس، وكذلك تلمسان وبعض ثغور تونس والمغرب الأوسط [(39)].

2. تعاظم نفوذ (عروج) في المغرب الأوسط بعد انضمام أخيه (خير الدين) إليه

سرعان ما لحق (خير الدين) بأخيه في جربة فاشتدَّ ساعده به، وانطلقا معًا يُغيران على السفن والسواحل الأوروبيّة، فزادت سطوتهما، وتضاعفت ثرواتهما إلى حدٍّ بعيد. وفي عام (920هـ / 1514م)، قام (عروج) بإغلاق ميناء مدينة بجاية بنحو أربع سفن، وحاصر قلعتها بمائتين من العثمانيّين، وبضعة آلاف من البربر، لكنّه لم يتمكّن من تحريرها نظرًا لحصانتها، كما فقد ذراعه اليسرى في تلك الأثناء، وعددًا كبيرًا من رجاله. وفي صيف العام التالي وبعد أن برأ تمامًا من جراحه، خرج للغزو برفقة (خير الدين) فغنم سفينة هولنديّة، ثمَّ رسا بجزيرة مينورقة، ومن هناك أغارا على خليج "جنوة Genoa"، حيث تمكّنا من الاستيلاء على أربع سفن، وتحرير عددٌ كبير من مسلمي الأندلس، ونقلهم إلى بلاد المغرب وتوطينهم فيها [(40)].

وبسبب هذا الهجوم، قرّر قائد الأسطول الإسباني (أندريا دوريا Andrea Doria)، استرجاع ما تمّت خسارته في هذا الخليج. وفي طريقه، علم أن (خير الدين) مُكلّفٌ بحراسة السفن في حلق الوادي، فراح مسرعًا لمهاجمة جند (خير الدين)، فأمر الأخير بتحطيم وإغراق السفن التي يحرسها، لكيلا تكون غنيمة للمهاجمين. ثمَّ تقدّم لردعهم، لكن صفوفه لم تكن كافية لمقاومة قوّة الإسبان، فراحت سفنه تسارع الفِرار إلى تونس، ومنها استطاع (دوريا) دخول الحصن ونهبه، واسترجع السفن الجنويّة المسلوبة، وست سفن أخرى تعود ملكيتها إلى (عروج) [(41)].

ولا غرابة في أن زعماء القبائل المتنفّذة في المغرب الأوسط، كان من الصعب عليهم قَبول فكرة الخضوع لسادةٍ جدد؛ كالأخوين بربروسّا الذين أخذا على عاتقهما مهمّة مقاومة النزعات الاستقلاليّة التي تفشّت بين هؤلاء الزعماء؛ لذا، كانت مهمّتهما القضاء عليها، قبل أن يوجّها طاقاتهم الجهاديّة ضدَّ الخطر الإسباني المهيمن على سواحل المغرب الأوسط.

لقد فشل الأخوين بربروسّا في تحرير بجاية من الإسبان -كما سبق الإشارة -بسبب إصابة (عروج)، إلّا أن هذه المحاولة مكّنت رجال القبائل من الاطّلاع على الصفات القتاليّة التي اتسم بها هذين الأخوين، ممَّا أدّى إلى تحفيز أهالي مدن المغرب الأوسط المحتلّة في طلبهم، لتخليصهم من الإسبان [(42)]. واختلف البعض حول سبب الفشل في تحرير بجاية؛ فأرجعه (الحسن الوزّان) إلى تخليّ القبائل عنهما، وانسحابهم من الحصار دون استئذان في موسم الحرث، كما تبعها -أيضًا -عددٌ كبير من الجنود العثمانيّين [(43)]. لكن على ما يبدو، أن الفشل في تحرير المدينة، راجعٌ إلى عدم مساعدة السلطان الحفصي لهما الذي خاف على مُلكه، خصوصًا بعد أن أرسل السلطان (سليم الأول) هداياه لهذين الأخوين مع (محي الدين بيري رئيس)، فتغيّرت معاملة السلطان الحفصي نحوهما [(44)].

وكان أولَّ اتصالٌ بين الأخوين بربروسّا والسلطنة العثمانيّة في عام (922هـ / 1516م)، قبيل استيلاء العثمانيّين على مصر في العام نفسه، وذلك عندما بعث (عروج) إلى السلطان (سليم) مع (بيري رئيس) بستِّ سفنٍ مُثقلة بالهدايا، فكافأه وأخاه بسفينتين حربيّتين محمّلتين بالمعدّات الحربيّة التي كانا بأمسِّ الحاجة إليها، وتُعدُّ هذه الاتصالات أولّ علاقةٌ رسميّة بينهما وبين والعثمانيّين. ثمَّ خرجا في أسطولٍ مكوّنٌ من ستِّ عشرة قطعة بحريّة، فاستولوا مع بحّارتهم على عددٍ من السفن الإسبانيّة، وأنقذوا عددًا من مسلمي الأندلس. وفي طريق عودتهم، استولوا على مدينة جيجل في المغرب الأوسط، وجعلوا منها قاعدة لعمليّاتهم الحربيّة نحو بجاية، حيث تركوا بها ثلاث سفنٍ وحاميةً مكوّنةً من خمسين بحّارًا عثمانيًّا. وهكذا، بدا وكأن الحرب ضد إسبانيا لم تعد مجرّد حملاتٌ يقوم بها مغامرون

(39)- شلبي، ***موسوعة التاريخ الإسلامي***، ج4، ص163.

(40)- دراج، ***الدخول العثماني إلى الجزائر***، ص157-158؛ مجهول المؤلف (2009)، ***سيرة المجاهد خير الدين بربروس في الجزائر***، تحقيق وتقديم وتعليق: د. عبد الله حمادي، الجزائر: دار القصبة للنشر، ص66-68؛

De Grammont, op. cit, p. 19; Belhamissi (Moulay) (1996), ***Marine et Marins D'Alger (1518-1830)***, Tome 1, Alger: Bibliothèque Nationale D'Algerie, p. 140.

(41)- هايدو، ***تاريخ ملوك الجزائر***، ص18.

(42)- مجهول المؤلف (1934)، ***غزوات عروج وخير الدين***، تصحيح وتعليق: نور الدين عبد القادر، الجزائر: المطبعة الثعالبية، ص18.

(43)- الوزان الفاسي، ***وصف أفريقيا***، ج2، ص38.

(44)- مجهول المؤلف، ***سيرة المجاهد خير الدين بربروس***، ص80؛ المطوي، ***السلطنة الحفصية***، ص678-679.

محترفون، وإنما هي حربٌ بين دولتين إحداهما ناشئة قام الأخوين بربروسّا بتأسيسها، والثانية فتيّة تولّت زعامة العالم المسيحي وقيادته، في حربها العدوانيّة على مسلمي الأندلس وبلاد المغرب [45].

تمَّ استقبال (عروج) في مدينة جيجل الساحليّة في شرق المغرب الأوسط بحفاوة، بفضل شهرته وبطولاته التي وصل إليها، فمكث فيها خلال فصلي الخريف والشتاء. وفي هذا الوقت، كان أهاليها يعيشون مجاعةً كبيرة، فخرج (عروج) بسفنه واستولى على ثلاث سفنٍ محمّلةً بالقمح، كانت في طريقها من جزيرة "صقلية Sicily" إلى جزيرة "سردينيا Sardinia"، ومنها عاد إلى جيجل وأمر بتوزيع ما حصل عليه على أهاليها، ما منحه شعبيّةً كبيرة، فتمّت مبايعته ملكًا على إمارتها [46].

وكان لاتصال (عروج) بالسلطنة العثمانيّة أهميّتان كبيرتان على مستقبل الوجود العثماني في المغرب الأوسط؛ **الأولى:** أنها أعطت الصبغة الرسميّة للعلاقة بين الأخوين بربروسّا والعثمانيّين، وذلك بفضل الحماية التي قدّمها السلطان العثماني لهما. **والثانية:** تحوُّل العِلاقة بين السلطان الحفصي وهذين الأخوين، من دور الحليف المناصر إلى الخَصم المناوئ، حيث بدأ هذا السلطان يجاهر بعداوته لهما، بدافع الخوف على عرشه [47]. وقد لعب هذين الأخوين دورًا رئيسًا، في تعجيل الأحداث السياسيّة بهذه المنطقة [48].

وبدون تخطيطٍ مسبق، اتسعت رقعة العثمانيّين في مناطقٍ جديدة، لا سيّما في الحوض الغربي للبحر المتوسط، لتبدأ في منازلة الإسبان في هذا الجزء من البحر، وتنتزع منهم سواحل المغرب الأوسط التي كانوا قد استولوا عليها. علمًا بأن الإخوة بربروسّا حتى هذا التاريخ لم يكونا قد دخلا بعد بشكلٍ رسميٍّ في خدمة العثمانيّين، وصارا تحت حمايتهم. ولا يوجد ما يدلُّ على أن السلطان (سليم الأول) قد عيّن (عروج) أو (خير الدين) في منصبٍ رسميٍّ باسم السلطنة العثمانيّة. وعلى هذا؛ فإن هذه المرحلة من علاقتهما بالعثمانيّين، اتسمت بضمان حمايتهم لهما، وتطابق سياستهما في الحوض الغربي للبحر المتوسّط مع السياسة العثمانيّة.

ويبدو أن البحّارة العثمانيّين لم يكونوا مجهولين لدى أهالي المغرب الأوسط، ليس بسبب غزواتهم البحريّة فحسب؛ بل لإنهم كانوا كغيرهم من البحّارة الأتراك يرسون في موانئهم لبيع غنائمهم، وإصلاح سفنهم، وتعويض خسائرهم البشريّة بقوّاتٍ جديدة. وقد كان (عروج) كغيره من البحّارة الأتراك، كثيرًا ما اتصلوا بالشخصيّات الدينيّة المحليّة، حيث قابل الشيخ الولي (أحمد بن يوسف الراشدي) في قرية كرشتل الساحليّة في شرق مدينة وهران [49]، حيث كانا على علمٍ بالخصائص الجغرافيّة والسياسيّة والعمرانيّة للمنطقة، وأن ظهورهما لم يكن سوى مرحلةً لاحقةً من مراحل الاتصال العثماني ببلاد المغرب [50].

بعد سقوط مدينتي وهران وبجاية في يد الإسبان، وتعرُّض أهاليهما للتعذيب والتقتيل والاسترقاق، اضطّر أهالي مدينة الجزائر -خشية تعرُّضهم لمصير هاتين المدينتين -إلى إرسال وفدًا برئاسة الشيخ (سالم التومي) حاكم ميناء الجزائر إلى إسبانيا، بمشاركة وفدٍ من مدينتي تنس ودلس، للاتفاق على شروط معاهدة تضمن لهم سلامتهم، وسلامة مدينتهم، دفعوا بموجبها جزيةً سنويّةً للإسبان، وأن يسمحوا للإسبان ببناء قلعة على الجزيرة المقابلة للمدينة، عُرفت فيما بعد بقلعة البينون. وهكذا، وجد أهالي مدينة الجزائر أنفسهم تحت حصارٍ مُحكم، لا يقدرون بسببه على القيام بأي نشاطٍ بحريٍّ دون إذن الحامية الإسبانيّة [51].

وفيما بعد، انتهز أهالي مدينة الجزائر فرصة وفاة الملك (فرديناند) في عام (922هـ / 1516م)، فنقضوا المعاهدة المفروضة عليهم، وامتنعوا عن دفع الجزية، وأرسل (سالم التومي) إلى (عروج) مستنجدًا. ولمَّا كان الأخير يعلم أن سقوط مدينة الجزائر بالكامل في يد الإسبان، سوف يمكّنهم من مركزٍ استراتيجيٍّ شديد الخطر، يجعلهم إلى جانب مراكزهم ببجاية ووهران والمرسى الكبير، أكثر قدرة على قمع المقاومة الناشئة، هذا من جانب. ومن جانبٍ آخر؛ فإن استيلاء العثمانيّين على مدينة الجزائر، وهي ذات موقعٍ بحريٍّ مهم يتوسّط بجاية ووهران، سوف يُسهّل عليهم كسر الشوكة الإسبانيّة، وذلك بالفصل بين قاعدتها الشرقيّة المتمركزة في بجاية، والغربيّة المتمركزة في وهران، ما دعاه لعدم التردُّد في قَبول دعوة النجدة؛ فأعدَّ لذلك ثماني عشرة سفينة بمدافعها وذخيرتها، وأرسلها مع نصف جنوده

---

(45)- المدني، ***حرب الثلاثمائة سنة***، ص164-165؛ حاجي خليفة المشهور باسم كاتب جلبي (2017)، ***تحفة الكبار في أسفار البحار***، تحقيق وترجمة: د. محمد حرب، د. تسنيم حرب، ط1، دار البشير للتفافة والعلوم، ص86؛ شوفالييه، كورين (2007)، ***الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر 1510-1541***، ترجمة: جمال حمادنة، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، ص26.

(46)- هايدو، ***تاريخ ملوك الجزائر***، ص22؛ مجهول المؤلف، ***سيرة المجاهد خير الدين بربروس***، ص80-81.

(47)- دراج، ***الدخول العثماني إلى الجزائر***، ص202.

(48)- التميمي، "**أول رسالة من أهالي مدينة الجزائر**"، ص116؛ المدني، ***حرب الثلاثمائة سنة***، ص50.

(49)- ابن سحنون الراشدي، أحمد بن محمد بن علي (2013)، ***الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني***، تحقيق وتقديم: الشيخ المهدي البوعبدلي، ط1، الجزائر: عالم المعرفة للنشر والتوزيع، ص19 (مقدمة المحقق).

(50)- سعد الله، أبو القاسم (1998)، ***تاريخ الجزائر الثقافي الجزء الأول 1500-1830***، ط1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ص137-138.

(51)- شوفالييه، ***الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر***، ص23-25؛ عباد، صالح (2012)، ***الجزائر خلال الحكم التركي 1514-1830***، الجزائر: دار هومة، ص34-35.

بحرًا بقيادة (خير الدين)، مع ألفٍ وخمسمائة من مجاهدي الشرق الإسلامي. وأمّا النصف الآخر المتبقّي، والبالغ عدده ثمانمائة فقد توجّهوا برًّا إلى مدينة الجزائر، وفي الطريق انضمَّ إليه نحو ثلاث آلاف من مجاهدي الجبال القبائليّة. فدخل (عروج) المدينة، واستقبله أهلها استقبال الفاتحين المنقذين. لكنه -لاحقًا -أباح لنفسه أن يتخلّص من (سالم التومي)، ويؤسّس تحت قيادته حكومةً عسكريّة. وكان جيش (عروج) غير قاصر على العنصر التركي؛ بل ضمَّ عددًا كبيرًا من القبائل وسكّان المدن، وبذا اكتسبت حكومته صفةً وطنيّة [52].

غير أن (خير الدين) ذكر في مذكّراته، أن أخاه (عروج) قد تركه في مدينة جيجل نائبًا عنه، وأن وفد مدينة الجزائر الذي جاء لطلب المساعدة، وصل إلى جيجل حينما كان مع أخيه فيها، وذلك بعد فشل المحاولة الثالثة للاستيلاء على بجاية، ما يعني أن (خير الدين) لم يشترك مع أخيه في الاستيلاء على مدينة الجزائر، ولكنّه كان على علمٍ مُسبق بها، وذلك خلافًا لِما أورده (أحمد توفيق المدني)، بأنه شارك أخاه في عمليّة الاستيلاء. وحسب ما ذكره (خير الدين) -أيضًا -في مذكّراته، أنه في الوقت الذي كان فيه (عروج) في طريقه إلى مدينة الجزائر، كان هو يتوجّه من جيجل إلى تونس لمقابلة السلطان الحفصي، لمعاتبته على عدم تزويده لهما بالبارود في أثناء حصار بجاية [53]، وهو ما نميل إيه.

وعن كيفيّة تخلُّص (عروج) من (سالم التومي)، فيبدو أنه استقدمه إلى مدينة الجزائر، مستخدمًا سلاح الخديعة بإظهار الولاء والطاعة له، ثمَّ شنقه بقماش عمامته في الحمّام وهو يتهيّأ لأداء صلاة الظهر، ثمَّ ادّعى أنه قد مات مختنقًا من حرارة الحمّام [54]. وبصرف النظر عن صحّة هذه الرواية من عدمها؛ فإن (عروجًا) بعد أن استقرَّ به المقام في المدينة، أمر بصكِّ العملة، وتحصين القصبة، ونصب فيها مدفعيّة صغيرة، ووضع عليها حاميةٍ عثمانيّة [55].

وفيما يبدو لم يكن (عروجًا) نرجسيًّا مُحبًّا لسفك الدماء طيلة حياته، حيث وصفه (سامح عزيز آلتر)، بأنه صاحب همّة عالية، ولا يسفك الدماء بغير حق، ولا ظالمًا لمن يطيعه [56]. ومن وجهة نظرنا، يبدو أن (عروجًا) قد اضطرَّ إلى قتل (سالم التومي) بعد أن توثّق من خيانته له.

بايع أهالي الجزائر (عروج) سلطانًا عليهم، فقُرئت الخُطبة باسمه بعد اسم السلطان (سليم الأول) باعتباره خليفة للمسلمين، ثمَّ استولى على شرشال، فتمكّن العثمانيّون من إحكام السيطرة على ثلاث مدن في المغرب الأوسط، هي: جيجل، والجزائر، وشرشال، إضافةً إلى مستغانم، ودلس، وتنس. ثمَّ كُلِّف (خير الدين) بإدارة القسم الشرقي من المغرب الأوسط، بينما تولّى هو القسم الغربي منه [57].

لم يكن جيش الأخوين بربروسّا ثابتًا من حيث تعداد أفراده، أمّا نواته فكانت بضع مئات من العثمانيّين والمهاجرين الأندلسيّين المسلّحين ببنادقٍ ناريّة، وكانت تلتحق بهم فصائل من السكّان المحليّين التي بلغت ما بين (85-90%) من مجموع أفراد الجيش كله [58]. وينمُّ التحاق السكّان المحليّين، سواء أكانوا عربًا أم بربر بجيش الأخوين بربروسّا، على أن هذين الأخوين قد وضعا نُصب أعينهم، مسألة عدم تجاهل أهميّة العنصر المحلّي في جلب التأييد الشعبي لهما، وظهر ذلك جليًّا في مساعدة هذا العنصر لهما في الاستيلاء على مدينة الجزائر.

وبذلك، يمكن القول: إن الأخوين بربروسّا ولا سيّما (عروج) قد تمتّعا بسلطة التفويض المباشر من السلطان العثماني في حكم منطقة المغرب الأوسط، وباتا بمنزلة وزراء تفويض بموافقة السلطة الشرعيّة الجديدة (السلطنة العثمانيّة)، وليس وزراء استيلاء فرضا نفوذهما على البلاد عنوةً، دون إقرار السلطان لهما بذلك. وإن جاز لنا التعبير؛ فإن الولاية العسكريّة الجديدة التي أُقيمت في المغرب الأوسط، كانت بمنزلة سلطة حكمٍ ذاتيٍّ ذات ارتباطٌ وثيق بالحكومة المركزيّة في الآستانة.

---

(52)- المدني، ***حرب الثلاثمائة سنة***، ص173-174؛ جوليان، ***تاريخ أفريقيا الشمالية***، ص327؛ عبد القادر، نور الدين (1965)، ***صفحات من تاريخ مدينة الجزائر من أقدم عصورها إلى انتهاء العهد العثماني***، قسنطينة: كلية الآداب للنشر والتوزيع، مطبعة البعث، ص49-50، 52-53؛ بلقاضي، بدر الدين؛ بن حموش، مصطفى (2007)، ***تاريخ وعمران قصبة الجزائر من خلال مخطوط ألبير ديفولكس***، الجزائر: المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، ص19؛ السليماني، أحمد (1989)، ***تاريخ مدينة الجزائر***، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، ص9، 11.

De Grammont, op. cit, p. 22; Devoulx (Albert) (1876), "**Alger, Etude archéologique et topographique sur cette ville**", *Revue Africaine*, No, 20, p. 66.

(53)- بربروس، ***مذكرات خير الدين بربروس***، ص73-74.

(54)- سبنسر، ***الجزائر في عهد رياس البحر***، ص41، السليماني، ***تاريخ مدينة الجزائر***، ص11.

(55)- عباد، ***الجزائر خلال الحكم التركي***، ص47.

(56)- آلتر، عزيز سامح (1989)، ***الأتراك العثمانيون في أفريقيا الشمالية***، ترجمة: محمود علي عامر، بيروت: دار النهضة العربية، ص68.

(57)- دراج، ***الدخول العثماني إلى الجزائر***، ص161، حاجي خليفة، ***تحفة الكبار في أسفار البحار***، ص89.

(58)- ايفانوف، ***الفتح العثماني للأقطار العربية***، ص101.

بعد مقتل (سالم التومي)، سرعان ما ثار أهالي مدينة الجزائر احتجاجًا على مقتله، وحاولوا مبايعة ابنه (يحيى) ليكون سلطانًا عليهم بدلًا من (عروج). وكان (يحيى) قد فرَّ إلى وهران طالبًا العون من الإسبان، وتمَّ تدبير مؤامرة بالتواطؤ مع الإسبان المتحصّنين في قلعة البينون، تسمح لهم بقتل (عروج) ومن معه من الجنود العثمانيّون، وتنصيب (يحيى) سلطانًا على المدينة. ولمَّا وصل خبر المؤامرة إلى (عروج) تظاهر بتجاهلها، وانتظر حتى اجتماع الأعيان في المسجد الجامع لأداء صلاة الجمعة، فأمر بإعدام ثمانين منهم بفتوى من علماء المدينة، ثمَّ أعلن سكّان المناطق المجاورة طاعتهم وتبعيّتهم للحكم العثماني [59].

3. استشهاد (عروج) ونهاية عهده

انزعج الإسبان من توطيد الأخوين بربروسّا نفوذهما في مدينة الجزائر، وأدركوا أن مخطّطاتهم الرامية لاحتلال سواحل المغرب الأوسط باتت في مهبّ الريح ولم تعد ناجحة كما خطّط لها. ثمَّ إن الزعماء المحليّين المنتفعين من أجواء الفوضى التي كانت تسود المنطقة قبل مجيء العثمانيّين، شعروا -أيضًا -أن نفوذهم آخذٌ بالتلاشي. وبذلك، التقت مصالح الإسبان مع مصالح هؤلاء الزعماء، فقرّروا توجيه ضربةً قاضيةً لتمدّد الأخوين بربروسّا في المغرب الأوسط، واستئصال شأفتهم. فما كاد (عروج) أن ينهي أمر (سالم التومي)، حتى شرع الإسبان في عمليّة غزو لمدينة الجزائر بالاتفاق مع أمير تنس، والتحالف مع قبيلة الثعالبة في المتيجة، يساندهم في ذلك الإسبان المتحصّنون في قلعة البينون. كما وجّه حاكم تلمسان دعوةً رسميّة للإسبان يلتمس منهم يد العون. ولاحقًا أصدر الكاردينال (خمينيس)، أمرًا في صيف عام (922هـ / 1516م) بإرسال خمسٍ وثلاثون سفينة، على متنها خمسٍ عشر ألفًا من الجنود، والتوجّه إلى مدينة الجزائر ومحاصرتها، والتخلُّص من الأخوين بربروسّا وأتباعهم، غير أن هذه الحملة باءت بالفشل، واضطرَّ الإسبان إلى الانسحاب مخلّفين وراءهم آلاف القتلى [60].

وفي العام نفسه، وكردٍّ على فشل الحملة الأولى، قام الإسبان بإنزال حملةً ثانية قوامها عشرة آلاف جندي، كما احتفظوا بقوّاتٌ أخرى في سفنهم الخمس وثلاثون التي جاءت لاستعادة مدينة الجزائر بقيادة الدون (دييغو دي فيرا Diego de Vera)، سرعان ما هاجمهم (عروج) في نحو ثلاث آلاف جندي في ليلةٍ عاصفةٍ شديدة الظلام، في معركةٍ على نهر وادي الحرّاش قرب مدينة الجزائر لم يتمكّن الإسبان بسببها من معرفة تحرّكاته، وبدئوا في قتل بعضهم بعضًا من هول المفاجأة. ولم يكد النهار يطلع، حتى كان الإسبان يلوذون بالفرار مخلّفين وراءهم ثمانمائة أسير، وثلاثة آلاف من القتلى، حسب الروايات الإسبانيّة. أمَّا (دي فيرا) نفسه، فنجا من الموت بأعجوبة [61].

وفي عام (923هـ / 1517م)، اتجه (عروج) على رأس قوّاته إلى تلمسان، مرورًا بالمدن الرئيسة، مثل: مديا، وملیانة؛ فأقام فيها حاميّاتٍ عثمانيّة، وامتدَّ نفوذه في غرب المغرب الأوسط بعد أن دخل تلمسان، وخضعت له القبائل القريبة من حدود مراكش، مثل: بني عامر وسناسن، وأقام علاقات حُسن جوار بسلطان فاس. وفي تلك الأثناء، خرج (أبو حمّو الثالث) من تلمسان، مُستنجدًا بالإسبان، وطالبًا العون من الملك (شارل الخامس Charles V) ضدَّ قومه، فأرسلوا إمداداتٍ قوّية لم يسبق أن خصّصوها لحملاتٍ ضد بلاد المغرب. وللمرّة الأولى توغّلت القوّات الإسبانيّة داخل أراضي المغرب الأوسط، بقيادة الماركيز (دي كوماريز De Comarez) بالتعاون مع (أبو حمّو)، حتى وصلت إلى مدينة تلمسان، وضربت عليها حصارًا قويًّا [62].

وفي عام (924هـ / 1518م)، تحرّكت قوّاتٌ إسبانيّة من وهران، بقيادة (مارتينيز دي أرغوت Martinez de Argote) متوجّهةً إلى تلمسان التي كان يتمركز فيها (عروج)، واشترك الزيانون بآلاف الفرسان من الأعراب إلى جانب الإسبان. فتوجّه (مارتين) أولًا إلى قلعة القلاع التي كان (إسحق رئيس) أخو (عروج) على رأس حاميتها، فتصدّت الحامية للقوّات الإسبانيّة بضراوة، غير أن عدم تكافؤ القِوى المدافعة والغازية، جعل عرقلة الإسبان ضربًا من المستحيل، فاستشهد (إسحق) وثمانمائة من رفاقه. ثمَّ وصلت قوّاتٌ إسبانيّة إضافيّة، مكوّنة من عشرة آلاف جندي لمساندة (مارتينيز) بقيادة (دي كوماريز)، توجّهت إلى تلمسان بعد الاستيلاء على قلعة القلاع [63].

ثمّ فرض (مارتينيز) حصارًا شديدًا على تلمسان، يسانده خمسٍ وثلاثون ألفًا من قوّات القبائل الموالية للسلطان الزياني، واستمرَّ هذا الحصار مدّة طويلة دون أن يستسلم (عروج) ورفاقه. ثمَّ قامت القوّات الموالية للسلطان (أبو حمّو) بهجومٍ مباغت على

(59)- بربروس، ***مذكرات خير الدين بربروس***، ص77-79؛ السليماني، ***تاريخ مدينة الجزائر***، ص11، 13.

(60)- دراج، ***الدخول العثماني إلى الجزائر***، ص214-215؛ عبد القادر، ***صفحات من تاريخ مدينة الجزائر***، ص54-55.

(61)- المدني، ***حرب الثلاثمائة سنة***، ص180-183؛ شوفالييه، ***الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر***، ص34.

(62)- العقاد، ***المغرب العربي في التاريخ الحديث***، ص19-20؛ مجهول المؤلف، ***سيرة المجاهد خير الدين بربروس***، ص90-93.

(63)- دراج، ***الدخول العثماني إلى الجزائر***، ص162؛ جوليان، ***تاريخ أفريقيا الشمالية***، ص328؛ الميلي، مبارك بن محمد (1984)، ***تاريخ الجزائر في القديم والحديث***، ج3، الجزائر: مكتبة النهضة الجزائرية، ص49؛ Fey, op. cit, pp.80-81

قوّات (عروج)، فقتلوا عددًا من رجاله. عندئذ، أدرك (عروج) استحالة الاستمرار في المقاومة، وتمكّن من فكِّ الحصار مع عددٍ من رجاله والانسحاب. وعلى أثر ذلك، قامت فِرقة إسبانيّة بمطاردتهم، فأدركتهم بعد خروجه من تلمسان، وتمكّنت من قتله وجميع من معه [(64)].

وعلى الرغم من قِصر المدّة التي قضاها (عروج) في نضاله، لتخليص المغرب الأوسط من الاحتلال الإسباني، وتوطئة الطريق لبسط النفوذ العثماني فيها، إلّا أن ما حقّقه خلال فترةً قصيرة لا تزيد عن ستِّ سنوات، تجعل المرء يندهش لضخامة هذه الإنجازات التي تحتاج -فعلًا -لسنواتٍ طويلة. ومع أنه بدأ نضاله مع أخيه (خير الدين)، دون أن يكون لهما أية قوّة قبليّة أو سياسيّة تسندهما، إلّا أنه استطاع بفضل حزمه، وقوّة إرادته، وطموحه السياسي البعيد، أن يُحسّن الفراغ السياسي التي كانت المغرب الأوسط تعانيه في هذه المدّة، ليؤسّس دولةً قويّة شملت حتى استشهاده منطقة الوَسط، ممتدّة من جيجل شرقًا حتى مستغانم غربًا، ومن البحر المتوسّط شمالًا حتى المدية جنوبًا، فتمكّن من تعبيد الطريق لخلفائه من بعده، لإقامة نظامٍ جديد في المغرب الأوسط [(65)].

وبذلك؛ فإن (عروجًا) ورغم قِصر حقبة نضاله ضدَّ القوى المحليّة والإسبان في المغرب الأوسط، لكنّه استطاع باقتدار أن يفرض واقعًا سياسيًّا وعسكريًّا جديدًا، مهّد به الطريق -لاحقًا -لأخيه (خير الدين) في استكمال المسار الجهادي الذي ابتدئه من قبل، ولينهي عهدًا مشرّفًا من الجهاد والنضال ضدَّ الاستعمار الإسباني، ومبشّرًا بتدشين عهدًا جديدًا لا يقلّ أهميّةً عن عهده.

ثالثًا: دور (خير الدين) في استكمال ضم المغرب الأوسط للنفوذ العثماني

لم يعنِ استشهاد (عروج) نهاية المطاف للجهاد الذي ابتدئه الأخوين، وبذل في سبيله الكثير من الجهد العسكري الذي مكّن العثمانيّين، من وضع موطئ قدم لهم في المغرب الأوسط. لذلك؛ كان من الضرورة بمكان أن يتسلّم أخاه (خير الدين) [(66)] راية الجهاد من بعده.

1- استكمال (خير الدين) الجهود للاستيلاء على بقيّة مدن المغرب الأوسط

بعد استشهاد (عروج)، بايع أهالي مدينة الجزائر وأعيانها وعلماؤها أخيه (خير الدين) أميرًا عليهم. وفي هذا الوقت الحرج، وصلت إلى مدينة الجزائر أنباء تمرُّد الكثير من القبائل، وخروج كلٍّ من تنس وشرشال عن الطاعة. أمَّا في تلمسان فقد تسلّم الأمير الزياني السلطة، وامتدَّ نفوذه إلى مليانة، فغدا بذلك على مقربةٍ من مدينة الجزائر، فأرسل (خير الدين) قوّاتٌ لتأديب شرشال وتنس. أمَّا القبائل القويّة فقد أخّرها إلى وقتٍ لاحق، ريثما يتمكّن من ضبط الأمور الداخليّة الناتجة عن استشهاد أخيه [(67)].

وبسبب حصافته العسكريّة، أدرك (خير الدين) أن الإسبان لن يكتفوا بقتل أخيه؛ بل سوف يتخلّصون منه أيضًا، حيث يتحصّن ومن معه من العثمانيّين، فأمضى شتاء عام (925هـ / 1519م) في الاستعداد لمواجهة الحملة الإسبانيّة المرتقبة، فعمد إلى ترميم قلعة مدينة الجزائر، وتصليح وإعداد سفنه، بالإضافة إلى عددٍ كبير من المدافع التي تُمكّن الأهالي من الدفاع عن مدينتهم [(68)]. وكانت قبيلة الثعالبة في المتيجة التي تعادي (خير الدين)، تتحيّن الفرصة للانقضاض عليه وعلى مدينة الجزائر، غير أن الإسبان لم يغامروا بالإسراع في الهجوم على المدينة، ولو فعلوا لتمكّنوا من احتلالها [(69)].

جمع (شارل الخامس) جيوشه، وأخذ في تجهيز السفن لتوجيه ضربةً قاضيةً للمسلمين في المغرب الأوسط، فوصلت تلك الحملة إلى وهران واستكملت عدّتها هناك، بينما أخذ حاكم تلمسان يستعدَّ لمواجهة (خير الدين)، ورست السفن الإسبانيّة على سواحل المدينة، كما بعث الإسبان برسالةٍ إلى (خير الدين) طالبوه فيها بتسليم مدينة الجزائر، وفي حال رفضه سيكون مصيره كمصير أخويه (عروج) و(اسحاق) في تلمسان. وعندما علم القائد الإسباني برفض (خير الدين) لطلب الاستسلام، بدأ في إنزال جنوده على الساحل،

---

(64)-بربروس، ***مذكرات خير الدين بربروس***، ص89-92؛ المدني، ***حرب الثلاثمائة سنة***، ص187-192؛ Belhamissi, op. cit, p. 140; Fey, op. cit, pp. 81-82

(65)- جوليان، ***تاريخ أفريقيا الشمالية***، ص328.

(66)- يتفق المؤرخون على أن ميلاد (خير الدين) كان بمدينة ميدلّي، كما هو شأن أخاه (عروج)، إلّا أن تاريخ ولادته أُختلف فيه، فمثلًا: سامح عزيز آلتر، يقول إنه وُلِد في عام 870هـ (1466م). آلتر، ***الأتراك العثمانيون في أفريقيا الشمالية***، ص27. ويقول يحي بوعزيز، إنه وُلِدَ في عام (878هـ / 1474م). بوعزيز، ***الموجز في تاريخ الجزائر***، ص10. ومنهم من يقول إنه وُلِدَ في عام (888هـ / 1483م)، كما ورد في: مجهول المؤلف، ***سيرة المجاهد خير الدين بربروس***، ص5.

(67)- دراج، ***الدخول العثماني إلى الجزائر***، ص227؛ ابن المفتي، حسين بن رجب شاويش (2009)، ***تقييدات ابن المفتي في تاريخ باشوات الجزائر وعلمائها***، جمعها واعتنى بها: فارس كعوان، ط1، الجزائر: بيت الحكمة، ص39.

(68)- بربروس، ***مذكرات خير الدين بربروس***، ص93.

(69)- وولف، ***الجزائر وأوروبا***، ص33؛ Devoulx, op. cit, p. 68

بينما نظّم (خير الدين) جنوده، ووضع خطةً حربيّةً لذلك، وبدأت المعركة التي استمرّت يومًا واحدًا، انتهت بهزيمة الإسبان الذين هربوا إلى سفنهم، فتمَّ أسر أعدادًا كبيرة منهم، وبذلك عاد حكم تلمسان إلى ولاية (خير الدين) مجدّدًا [70].

تصدّى (خير الدين) مجدّدًا لحملةً عسكريّةٍ على مدينة الجزائر في العام نفسه، بقيادة الدون (هيكو دي مينكادا Hego de Mongada)، الفارس الكنسي لمالطة، والقائد الإسباني (مارينو دي ريبيرا Marino de Ribera). كما تمكّن من الاستيلاء على مدينتي بونة (عنابة) وقسنطينة، لكن (خير الدين) اضطرَّ إلى مغادرة مدينة الجزائر بعد الثورة التي قادها (أحمد بن القاضي) زعيم القبائل البربريّة ببلاد زواوة، بتحريضٍ من سلطان تونس الحفصي عام (930هـ / 1524م)، فلجأ إلى جيجل حتى تمكّن من استرداد مدينة الجزائر مجدّدًا بعد ثلاث سنوات. وكان أعظم حدث قام به (خير الدين) -بلا شك -في عام (935هـ / 1529م)، استيلائه على حصن البينون المواجه لميناء الجزائر، بعد أن أرسل إخطارًا إلى قائد القلعة الدون (مارتن دي فرغاس Martin de Vergas)، يدعوه فيه إلى إخلاء القلعة، وعُدَّ هذا الاستيلاء بدايةً لتأسيس ما عُرف بنيابة الجزائر. ومنذ ذلك التاريخ، تحوّل ميناء الجزائر إلى عاصمةً كبرى للمغرب الأوسط، وبدأ استخدام كلمة الجزائر منذ ذلك التاريخ، للدلالة على إقليم المغرب الأوسط كُليًّا [71].

وكان (خير الدين) قد استعمل الحيلة لتحطيم الحصن، إذ أمر بتجهيز كل السفن الحربيّة، وشحنها بالرجال والعتاد، وأشاع أنه ينوي الإبحار صوب السواحل الإسبانيّة من أجل الغزو والجهاد. وخرجت السفن -فعلًا -من وراء صخور مدينة الجزائر، وأخذت طريقها نحو الشمال، لكن تلك السفن سرعان ما عادت أدراجها تحت جنح الظلام، واختبأت في مرفأ تاما نتفوس. وفي خلال هذه الحملة، قُتل من الإسبان نحو خمسٍ وستين جنديًّا، وأسر تسعين جنديًّا، وخمسٍ وعشرين من النساء والأطفال، من بينهم (دي فرغاس) نفسه [72].

بعد فشل الحملة السابقة على مدينة الجزائر، جهّزت إسبانيا حملةً أخرى في العام التالي، مكوّنة من مائةٍ وعشرة قطعة بحريّة، قادها الأميرال (فرديناند Ferdinand) نائب الملك (شارل الخامس) على صقلية، إلّا أنها مُنيت بهزيمةٍ كبيرة عندما تعرّض لها (خير الدين) بهجومٍ مضاد، أثار الاضطراب في الأسطول الإسباني. وأسفرت الحملة عن أسر القائد (فرديناند) مع خمسٍ وثلاثون قبطانًا، وثلاثمائة بحّارٍ إسباني، وأسر الآلاف من جنود الحملة، وإغراق عددٍ كبير من السفن، أو الاستيلاء عليها [73].

وبتغلُّب (خير الدين) على القوّات الإسبانيّة المتمركزة في حصن البينون، هدم أغلبه ولم يترك سِوى برجًا فيه [74]. وفيما بعد، اضطرّ إلى طلب المساعدة من السلطنة العثمانيّة لمحاربة الإسبان، وموضّحًا لسلطانها ميزات الجزائر كقاعدةٍ إسلاميّةٍ أماميّة للقتال ضدَّ الإسبان؛ فاستجاب السلطان (سليم الأول) لطلبه عام (924هـ / 1518م)، فمدّه بألفي جندي من الإنكشاريّة، وسمح لرعاياه من الأناضول بالتطوُّع في الجيش الذي سيرسله، لمساعدة (خير الدين). ومنذ ذلك الوقت، صارت الجزائر تابعة اسميًّا للسلطنة العثمانيّة [75]. كما صدر الإذن إلى (خير الدين)، بصكِّ نقودًا للتعامل في نيابة الجزائر، وتلقّى فرمانًا سلطانيًّا بتعيينه واليًا وبيكلر بك (بك بكوات المغرب) على البلاد، ونائبًا للسلطان فيها [76].

لكن ما الأسباب التي دعت (خير الدين)، للتعجيل بطلب إلحاق الجزائر بالسلطنة العثمانيّة، مع أنه كان بإمكانه الاستقلال بها؟ إن الذي يدقّق النظر في طبيعة الصراع الدائر في هذه المنطقة المهمّة، يرى أن ثمة أسباب ودوافع دعته لذلك، منها [77]:

1. إدراكه لمحدوديّة قدراته العسكريّة بالمقارنة مع الإمكانات الهائلة التي يمتلكها الإسبان.
2. معرفته لموازين القوى في الصراع الإسلامي المسيحي، جعلته يرجّح ضم جهده إلى السلطنة العثمانيّة؛ فهي وحدها التي كانت مؤهّلة لقبول ضم الجزائر إلى ممتلكاتها، وحمايتها بالمال والعتاد والرجال.
3. تخوّفه من الزعماء المحليّين في الجزائر، سواء أكانوا أمراء، أو شيوخ قبائل، أو أعيان مدن. فمن خلال سابق تجربته معهم، رأى مدى استعداد هؤلاء للثورة والتمرُّد عند أول فرصة تتاح لهم من جهة، واستعداد الكثير منهم للارتماء في أحضان الإسبان من

(70)- مجهول المؤلف، ***سيرة المجاهد خير الدين بربروس***، ص95.

(71)- المدني، ***حرب الثلاثمائة سنة***، ص205-211؛ جوليان، ***تاريخ أفريقيا الشمالية***، ص329؛

Belhamissi, op. cit, p. 140; Cat (Edward) (1889), ***Petite Histoire de l'Algérie – Tunisie - Maroc***, Edited by Adolphe Jourdan, Tome 1, Imprimeur-Libraire-Editeur, Alger, p. 245

(72)- بربروس، ***مذكرات خير الدين بربروس***، ص134-135؛ المدني، ***حرب الثلاثمائة سنة***، ص215-216.

(73)- بربروس، ***مذكرات خير الدين بربروس***، ص138؛ دراج، ***الدخول العثماني إلى الجزائر***، ص243.

(74)- بلقاضي؛ مصطفى، ***تاريخ وعمران قصبة الجزائر***، ص80.

(75)- العقاد، ***المغرب العربي في التاريخ الحديث***، ص20؛ جوليان، ***تاريخ أفريقيا الشمالية***، ص328؛ Cat, op. cit, p. 243

(76)- سبنسر، ***الجزائر في عهد رياس البحر***، ص45-46.

(77)- دراج، ***الدخول العثماني إلى الجزائر***، ص233-235.

جهةٍ أخرى. لذلك؛ فإن سعي (خير الدين) لجعل الجزائر ولايةً عثمانيّة، إنما كان يرمي إلى البحث عن صمّام أمان في وجه أي حركة تمرُّد، يمكن أن يقوم بها الزعماء المحليّون في أثناء انشغاله بأعداء الخارج.

ترتّب على تدمير حصن البينون، واستقرار العثمانيّين في مدينة الجزائر [78]:

1. وضع حجر الأساس لبسط الوصاية العثمانيّة في الجزائر نهائيًّا.
2. تضاعفت الغزوات العثمانيّة البحريّة على طول سواحل غرب البحر المتوسّط، فأصبحوا القوّة الضاربة الأولى في المنطقة، فزرعوا الرعب في قلوب أوروبا، وأصبحت الجزائر تراقب جميع الطرق البحريّة الكبرى للبحر المتوسّط، وتعدّدت غارات مجاهدي الجزائر على إسبانيا وإيطاليا، وجزر غرب البحر المتوسّط.
3. تحرير كامل ساحل الجزائر الأوسط بشكلٍ نهائي، وجعل إعادة احتلاله مجدّدًا من طرف الإسبان أمرًا مستحيلًا، أثبتته حملاتهم اللاحقة الفاشلة على مدينتي شرشال والجزائر التي تلت طردهم من حصن البينون.

ومن هنا؛ فإن تحرير حصن البينون يُعدَّ نصرًا كبيرًا حقّقه (خير الدين)، رسّخ فيه وجوده في مدينة الجزائر، خصوصًا بعد بناء ميناءها من أجل التصدّي للإسبان، كما يُعدَّ بمنزلة الفتح العثماني الرسمي للجزائر.

وبذلك، امتدّت حدود الجزائر العثمانيّة نحو الجنوب، حتى واحات الميزان الموغلة في الصحراء. ولم يكن الصراع الداخلي ما يشغل (خير الدين) فقط؛ بل كان عليه التصدّي للاعتداءات الأوروبيّة. وقد نجح في هذا الميدان أيضًا؛ فاستردَّ أكثر المدن الساحليّة التي كان الإسبان قد استولوا عليها. وهو إلى ذلك، استطاع السيطرة على الملاحة بالبحر المتوسّط بين عامي (926-932هـ / 1520-1525م)، فكان على الدول الأوروبيّة أن تدفع له إتاوة، نظير السماح لسفنها بالسير في هذا البحر. وبذلك، مثّلت الجزائر المركز الرئيس لسلطان العثمانيّين في بلاد المغرب [79]. ولقد أدخل العثمانيّون مفهوم الحدود السياسيّة في بلاد المغرب، ورسموا للجزائر حدودها الحالية التي لم تتغيّر منذ ذلك الوقت [80].

وبِما أن العثمانيّين اتخذوا من مدينة الجزائر عاصمةً لهذه النيابة الناشئة؛ فإن النضال أخذ اتجاهًا دينيًّا، فأطلقوا عليها اسم "الجزائر دار الجهاد"، وظلَّ هذا هو اسمها الرسمي بين عامي (922-1246هـ / 1516-1830م) [81]. وبذلك، استحقّت مدينة الجزائر هذا الاسم عن جدارةٍ كاملة، من تلك الاستحكامات التي بناها العثمانيّون. فقد طوّروا دفاعاتها بعنايةٍ كبيرة، وبدرجةٍ عاليةٍ من المهارة العسكريّة، وحافظوا عليها بعنايةٍ مماثلة، ففاقت بذلك كمؤسّسةٍ عسكريّةٍ المدن العثمانيّة الأخرى ومنها الآستانة عاصمة السلطنة [82].

لذا؛ نجد أن (خير الدين) قد أبلى في جهاده بنيابة الجزائر بلاءً حسنًا، حيث تمكّن بعد بذل الكثير من الجهد والدماء، من بتر شأفة الزعامات المحليّة فيها من ناحية، وتحرير غالبية مدنها من الإسبان الذين لم يتبقَّ في أيديهم منها سوى مدينة وهران، كما سبق الإشارة.

ومهما يكن من أمر؛ فإن الحرب في الجزائر لم تنتهِ؛ بل اتخذت طابعًا أكثر عنفًا في البحر المتوسّط، واستمرَّ الأسطول العثماني في مهاجمة طرق مواصلات إسبانيا فيه، ويجتاح شواطئه لتخريبها، كما استمرَّ بنقل الذخائر الحربيّة والأسلحة إلى مسلمي الأندلس، وبخاصّة خلال انتفاضتهم في مدينة بلنسية (فالنسيا Valencia)، وإخراج عشرات الآلاف منهم. فقام (خير الدين) شخصيًّا بسبع رحلاتٍ بحريّةٍ إلى الشواطئ الإسبانيّة، وتمكّن بواسطة ستٍ وثلاثون سفينة من إنقاذ سبعون ألفًا من مسلمها، حيث بات هؤلاء فيما بعد الركيزة الوفيّة للنظام العثماني، والتحق الكثير منهم بالجيش والأسطول [83].

2- محاولات الإسبان الاستيلاء على تونس في عام (941هـ / 1535م)

منح السلطان (سليمان القانوني) الذي تولّى الحكم في عام (926هـ / 1520م)، قيادة الأسطول العثماني إلى (خير الدين) في عام (939هـ / 1533م)، في محاولةٍ لغزو إسبانيا، وتعيينه بشكلٍ رسميٍّ بيكلر بك على الجزائر، فصار منذ ذلك الوقت أكثر من مجرّد أمير للبحر؛ بل أصبح رئيسًا لدولةً وإن كانت غير تامّة السيادة، وخاطبه (شارل الخامس) باسم (ملك الجزائر)، بعد معركة بروزة (بريفيزا Preveza) في عام (944هـ / 1538م) [84]، كما ستأتي الإشارة.

---

(78)- المرجع السابق، ص264-265.

(79)- العقاد، ***المغرب العربي في التاريخ الحديث***، ص21.

(80)- فارس، محمد خير (1969)، ***تاريخ الجزائر الحديث من الفتح الإسلامي إلى الاحتلال الفرنسي***، ط1، دمشق، ص55.

(81)- المدني، ***حرب الثلاثمائة سنة***، ص7.

(82)- سبنسر، ***الجزائر في عهد رياس البحر***، ص52.

(83)- ايفانوف، ***الفتح العثماني للأقطار العربية***، ص111-112.

(84)-بربروس، ***مذكرات خير الدين بربروس***، ص159-166؛ سبنسر، ***الجزائر في عهد رياس البحر***، ص47.

كانت إسبانيا من أكثر الدول الأوروبيّة تأثّرًا بانتصارات (خير الدين)، حيث كانت هذه الدولة -في ذلك الوقت -قد دخلت ضمن إمبراطوريّة (شارل الخامس) الكبيرة، التي شملت ألمانيا وأجزاء من إيطاليا وأوروبا الشرقيّة. وقد نصّب من نفسه مدافعًا عن أوروبا المسيحيّة، ضدَّ الزحف العثماني نحو شرق أوروبا ووسطها. وكان قد أرسل مبعوثًا للتجسّس في بلاد المغرب في عام (940هـ / 1533م)، طاف في أنحاء تونس واكتشف فيها استعداد الحفصيّين للتعاون مع الإسبان، ونبّه إلى استعدادات (خير الدين) للاستيلاء عليها [85].

وكان العثمانيّون يتطلّعون إلى مدِّ سيادتهم على تونس بعد استيلائهم على الجزائر؛ فنجح (خير الدين) في الاستيلاء على مدينة تونس عاصمة الحفصيّين في عام (940هـ / 1534م)، وقضى على حكمهم فيها. وكان هذا الحدث المهم، بالإضافة إلى إعلان (محمد الزياني) ثورته على حاكم وهران الإسباني، حافزًا لكي يقود (شارل الخامس) حملةً للاستيلاء على تونس، بالتعاون مع الأمراء الحفصيّين بعد انقسام البيت الحفصي، واستنجاد بعض أفراده بالإسبان مثل السلطان (الحسن) ضدَّ بعضهم البعض. ففي عام (941هـ / 1535م)، أعدَّ (شارل الخامس) حملةً بحريّةً كبيرة خرجت من ميناء "برشلونة Barcelona"، ضمّت أربعمائة سفينة، وثمانٍ وعشرون ألفًا من الجنود، تمكّنت بسهولة من الاستيلاء على مدينة تونس. وكان ردُّ (خير الدين) على هذه الحملة، أن شنَّ غارةٌ مفاجئة على جزائر "البليار Balearic" الإسبانيّة، عاد بعدها إلى مدينة الجزائر ومعه ستِّ آلاف أسير، ثمَّ استأنف الجهاد ضدَّ القِوى الأوروبيّة الطامعة [86].

غير أننا نرى أن عدد الأسرى هذا مبالغٌ فيه، إذ لا يُعقل أن يكون بوسع سفن (خير الدين) التي هاجمت هذه الجزائر، حمل هذا العدد الكبير من الأسرى. ويبدو أن المؤرّخين قد ذكروا هذا الرَّقم، من باب تضخيم حجم الانتصار الذي تمَّ تحقيقه.

لم يكتفِ (خير الدين) بما حقّقه في جزائر البليار؛ بل أغار على قلعة "قسطيلية Castello" في جنوب إيطاليا، وخرّبها بعد أن استولى على عددٍ كبير من الأسرى عاد بهم إلى الآستانة. وفي عام (943هـ / 1537م)، أغار على عددٍ من الجزائر والشواطئ الأوروبيّة، ما أشعر أوروبا بالرعب الشديد، فاضطرَّ (شارل الخامس) إلى عقد هدنة مع ملك فرنسا (فرنسوا الأول François I). وتنادت الممالك الأوروبيّة لعقد تحالفٍ صليبيٍّ كبير في عام (944هـ / 1538م)، اشتركت فيه إسبانيا والباباويّة والبندقيّة والبرتغال، فأعدّت حملةً كبيرة وسلّمت قيادتها إلى (أندريا دوريا). فاستعد (خير الدين) لمواجهة هذا التحالف، بأسطولٍ مكوّنٌ من مائةٍ وثنتان وعشرون سفينة، ثمَّ اشتبك معه في خليج بروزة (بريفيزا) في غرب اليونان، انتهت بهزيمةٍ قاسية للتحالف الصليبي، واستيلاء (خير الدين) على ستٍّ وثلاثون سفينة، وثلاثة آلاف أسير [87].

غير أن الراهب (هايدو) لم يخصّص سوى فقرةً قصيرة عن معركة بروزة، أشار فيها إلى عدم حدوث مواجهةً بينهما، إذ انسحب (دوريا) منها لأسبابٍ لم يأتِ على ذكرها [88]. ويبدو أن (هايدو) لم يُسجّل هذه المعركة في مدوّناته، لِما تركه أثر انهزام (دوريا) في نفوس الأوروبيّين عامة، والإسبان خاصّةً من حزنٍ وضعف، خاصّةً أن أحداث المعركة شاركت فيها أكثر القوى الأوروبيّة متحدة؛ فكأنّه أراد أن يمحو أثر هذه المعركة من الذاكرة الجماعيّة للأوروبيّين.

3- مهاجمة الإسبان لمدينة الجزائر في عام (948هـ / 1541م)

بعد معركة بروزة، يئس (شارل الخامس) من الانتصار على العثمانيّين في البحر المتوسّط، فشرع يستعد لغزو مدينة الجزائر، وأرسل إلى (خير الدين) كتابًا يتسم بلغة اليأس، جاء فيه: "إن تنزيلك من منصبك كملكٍ للجزائر، لتكون بيلر بايًا (بيكلر بايًا) عليها حسبما تقتضي به التقاليد العثمانيّة، يُعدُّ إهانةً بالغةً لك. وها أنذا أعرض عليك أن تتخلّى عن خدمة السلطان (سليمان)، على أن أجعلك ملِكًا وحيدًا على كل البلاد الأفريقية الواقعة بين البحر الأحمر والمحيط الأطلسي. وليكن معلومًا لديك، بأنني لا أريد أن تكون حليفًا لي؛ بل يكفي أن تكون صديقًا لي، وتقطع صلتك بالعثمانيّين؛ فهذا كل ما أريده منك". غير أن (خير الدين) الذي كان يمتاز بالحصافة السياسيّة لم يتعجّل في رفض هذا العرض؛ بل أخذ يماطل في الرد، لكنّه كان قد اتخذ قراره بأن يظلَّ في خدمة السلطان العثماني [89].

وبالإمكان التوقُّف هنا عند ما ورد في هذا الكتاب، بما يلي:

1. أراد (شارل الخامس) أن يقلّل من قيمة المنصب الجديد الذي حصل عليه (خير الدين)، وهو أمير الأسطول العثماني.

---

(85)- العقاد، ***المغرب العربي في التاريخ الحديث***، ص21.

(86)- جوليان، ***تاريخ أفريقيا الشمالية***، ص330؛ سرهنك، إسماعيل (1312هـ)، ***حقائق الأخبار عن دول البحار***، ج1، ط1، القاهرة: المطبعة الأميرية، ص420؛ بربروس، ***مذكرات خير الدين بربروس***، ص171-177؛ ابن أبي دينار، محمد بن أبي القاسم القيرواني (1286هـ)، ***المؤنس في أخبار إفريقية وتونس***، ط1، تونس: مطبعة الدولة التونسية، ص153-155.

Coles (Paul) (1968), ***The Ottoman Impact on Europe***, New York: Harcourt, Brace & World, p. 93.

(87)- بربروس، ***مذكرات خير الدين بربروس***، ص181-189؛ حاجي خليفة، ***تحفة الكبار في أسفار البحار***، ص110-117.

(88)- هايدو، ***تاريخ ملوك الجزائر***، ص65.

(89)- بربروس، ***مذكرات خير الدين بربروس***، ص193-195.

2. لقد بلغ (شارل الخامس) قمّة الاستخفاف في عرضه على (خير الدين)، بأن يكون ملكًا على الأراضي الممتدة من مصر حتى المغرب الأقصى (مراكش)، وهو يعلم أن مصر تابعةً للسلطنة العثمانيّة، بينما المغرب الأقصى تخضع لحكم بني مرين.
3. ولكي يكسب (شارل الخامس) ثقة (خير الدين)، ويُظهر له حُسن نواياه لم يطلب منه أن يكون حليفًا له، حتى لا يقلّل من قدره، وألّا يظهره بمظهر الخائن لسيّده السلطان العثماني.
4. إن الغرض الرئيس من هذا الكتاب، يتمثّل بقطع (خير الدين) صلته بالسلطنة العثمانيّة، وذلك لإضعاف نفوذها في البحر المتوسّط وفي الجزائر، تمهيدًا لاستئصال شأفتها تمامًا في هذه البقاع.
5. لقد كان رد (خير الدين) على ما ورد في هذا الكتاب، ينمُّ أولًا وأخيرًا عن ولائه التام للسلطان العثماني، فضلًا على أنه لم يكن غُرًّا لقبول ما ورد في الكتاب من ترهات، وهو يعلم علم اليقين أنها مجرّد فقاعات لا قيمة لها، وتنمُّ على عجز الملك بعدما تعرّض لكثيرٍ من الهزائم المتتالية.

وفي الوقت الذي انشغل فيه (خير الدين) بحكم منصبه الجديد (قبطان باشا)، استمرَّ (حسن آغا الطوشي) في المنصب الذي عيّنه فيه (خير الدين) نائبًا له في الجزائر، فعمل على التصدّي لهجمات القرصنة الأوروبيّة، فأبلى في سبيل ذلك بلاءً حسنًا، وذاع صيته في الجزائر التي أكسبها بموقفه مهابةً وجلالًا، ما جعل الدول الأوروبيّة تستنجد بالملك (شارل الخامس)، ومنهم البابا (بول الثالث Paul III). ولم يألوا (حسن آغا) جهدًا في توطيد الأمن، ومحاولة جمع أطراف البلاد حول السلطة المركزيّة في الجزائر، فأخضع مدينة مستغانم لدولته، ثمَّ تقدّم نحو الجنوب الشرقي فاستولى على بكرة عاصمة الزاب وملحقاتها، وشيّد فيها حصنًا وضع بها حامية عسكريّة [(90)].

وفي عام (945هـ / 1539م)، استولى (حسن آغا) على جبل طارق، وتوغّل في جهات الساحل الإسباني الجنوبي، ونال فيها الكثير من الغنائم والأسلاب [(91)]. لقد كان الهجوم العثماني هذه المرّة ولأنه وقع داخل الأراضي الإسبانيّة نفسها صدمةً اعترت (شارل الخامس)، فعزم على إرسال حملةٍ عسكريّةٍ إلى مدينة الجزائر، مستغلًّا حالة الهدوء النسبي التي سادت القارة الأوروبيّة، إثر عقد هدنة بين إسبانيا وفرنسا لمدة عشر سنوات في العام السابق. وتولّى بنفسه الإشراف على إعداد الحملة، وشاركه فيها (فرناندو كورتيز Fernand Cortez) فاتح المكسيك، وولديه الدون (مارتن Martin)، والدون (لويس Luis) [(92)].

وصلت الحملة إلى قبالة مدينة الجزائر في عام (948هـ / 1541م)، ونزلت على ساحل المدينة، وكانت تضم نحو ستٍّ وثلاثون ألف مقاتل، وخمسٍ وستون سفينة حربيّة، وأربعمائة وإحدى وخمسون سفينة نقل، وتطوّع في الحملة أيضًا نبلاء إسبانيا وألمانيا وإيطاليا وفرسان القديس يوحنا وأخو البابا، لكنّها فشلت بسبب العواصف الهوجاء التي هبّت على الساحل، فاقتلعت الخيام، ودمّرت الكثير من سفن الأسطول الإسباني، إذ شملت الخسائر مائتا سفينة، ومائتا مدفع، واثني عشر ألفًا من الجنود ما بين قتيلٍ وغريقٍ وأسير [(93)].

وكان (خير الدين) قد وصل إلى مدينة الجزائر للإسهام في الدفاع عنها، لكنّه وصل بعد أن كان الجزائريّون بقيادة (حسن آغا) ابنه الروحي، وخلفه الوفي قد أنهوا المهمّة على أكمل وجه، فاكتفى بتفقّد أحوال نيابة الجزائر، والاطلاع على سير الأمور فيها، ثمَّ انطلق صوب الممتلكات الإسبانيّة لمهاجمتها. وفي خطوةٍ تدلُّ على مكافأة السلطان (سليمان القانوني)، لِما قدّمه (حسن آغا) من خدماتٍ في التصدّي للخطر الإسباني أمام سواحل مدينة الجزائر، أصدر فرمانًا بترقيته إلى رتبة الباشويّة [(94)].

غير أن الانتصار العثماني في معركة بروزة لم يكن السبب الوحيد الذي دعا الإسبان لمهاجمة مدينة الجزائر، إذ يبدو أن ثمة سببًا آخر لا يقلّ أهميّةً، وهو تخوُّف الإسبان من اتصال مسلمي الأندلس بالعثمانيّين، فقرّروا قطع الطريق على رُسلهم إلى الآستانة لطلب النجدة، حيث خشي الإسبان من احتمال إرسال العثمانيّين حملةً بحريّةً ضد بلادهم [(95)].

وفيما يخص ما ورد بشأن نسب (حسن آغا)؛ فإن المصادر التاريخيّة لم تذكر أي صلة قرابة، أو نسب بينه وبين (خير الدين)، واكتفت بالقول: إنه كان بمنزلة الابن الروحي له. ولكن حسب ما أورده (خير الدين) في مذكّراته فقد أكّد أنه كان ابنًا حقيقيًا له، وذلك بقوله: "فشرع (شارل الخامس) يستعدَّ للاستيلاء على شمال أفريقيا التي كان ولدي (حسن باي) يشرف عليها نيابةً عني ..."، وقوله: "بعد

---

(90)- رضوان، ***جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس***، ص324-325؛ المدني، ***حرب الثلاثمائة سنة***، ص279.

(91)- المدني، ***حرب الثلاثمائة سنة***، ص280؛ بربروس، ***مذكرات خير الدين بربروس***، ص193.

(92)- وولف، ***الجزائر وأوروبا***، ص56؛ Lynch, op. cit, Vol. 1, p. 96; Fey, op. cit, p. 78

(93)- المدني، ***حرب الثلاثمائة سنة***، ص295-297؛ بربروس، ***مذكرات خير الدين بربروس***، ص197-206. ولمزيد من التفاصيل عن هذه الحملة، انظر: De Grammont, op. cit, p. 58, 62-65; Cat, op. cit, p. 247-252

(94)- المدني، ***حرب الثلاثمائة سنة***، ص313.

(95)- Guin (L.) (1886), "**Quelques notes sur les entreprises des espagnoles pédantes la première occupation d'Oran**", *Revue Africaine*, No. 178, p 313.

هذا الانتصار الكبير، أُطلق على ولدي (حسن باي) لقب الغازي" [96]. ويبدو هنا أن (خير الدين) يتحدث عن ابنٍ شرعيّ له، وليس ابنًا روحيًّا يعمل تحت إمرته. غير أن (إيلي دي بريموداي Elie de Primadudie)، و(أحمد السليماني)، يذكران أن (حسن آغا) هذا كان قد وقع أسيرًا في يد (خير الدين)، وهو لا يزال صغيرًا في سواحل جزيرة سردينيا، حيث ربّاه وجعله يعتنق الإسلام [97]. ونرى أن (حسن آغا) ليس ابنًا شرعيًّا بالإمكان نسبته إلى (خير الدين)، لكن الأخير عدّه بمنزلة ابنه الشرعي لثقته الكبيرة به.

لقد كانت نتائج هزيمة الأسطول الإسباني أمام سواحل الجزائر مدوّية على (شارل الخامس)، أعقبها تأييد (خير الدين) فكرة التحالف العثماني الفرنسي، فتعاهد مع الفرنسيّين ضدَّ أعدائه، وساعد على التقرُّب بين العثمانيّين والفرنسيّين مستغلًّا العداء بينهما؛ بل إنه ساعد الفرنسيّين عام (950هـ / 1543م)، بأسطولٍ مكوّنٌ من مائةٍ وعشرة سفينة، على استخلاص مدينة "نيس Nice" الفرنسيّة من أيدي الإسبان، بناءً على طلب ملك فرنسا (فرنسوا الأول François I) [98]. وأنهى (خير الدين) دوره الجهادي في الحوض الغربي للبحر المتوسّط والجزائر، بوفاته في عام (953هـ / 1546م)، وتمَّ دفنه بالقرب من ميناء بشكطاش بالآستانة [99].

وتميّزت مدّة حكم (خير الدين) للجزائر بخصائصٍ مهمّة عدّة، ميّزت حكمه عن حكم أخيه (عروج)، ومن جاء بعده من الولاة العثمانيّين، منها [100]:

1. إلحاق الجزائر رسميًّا بالسلطنة العثمانيّة، وما تلا ذلك من ارتباط السياسة الخارجيّة للجزائر بالسياسة العثمانيّة، خصوصًا في صراعها مع أوروبا. فقد أدرك (خير الدين)، أنه مهما كان الدعم الذي يلقاه من القوى الدينيّة والشعبيّة المحليّة المحبّة له، ومهما كانت إمكاناته العسكريّة؛ فإنه لا يستطيع أن يتصدّى بمفرده لدولةٍ قويّة مثل إسبانيا لمدةٍ طويلة.
2. تحرير كافة المناطق التي كانت خاضعة للإسبان، حتى إنه لم يتبقَّ في أيديهم سوى وهران.
3. بروز الدور الفعّال للأسطول العثماني الذي تولّى (خير الدين) قيادته، حيث تمكّن من نقل المعركة مع أوروبا من البرِّ إلى البحر، ونشر الرعب في سائر الدول المطلّة على البحر المتوسّط.
4. بروز ما يمكن تسميته بالأهميّة السياسيّة للجزائر، حيث صنع (خير الدين) منها دولةً متميّزة عن جارتيها (تونس ومراكش). لذلك؛ فإنه عُدَّ المؤسّس الحقيقي للدولة الجزائريّة الحديثة.

وكان (خير الدين) خلال مدّة حكمه لنيابة الجزائر قد عكف على تنظيمها إداريًّا، وتوطيد نفوذها، فجعل للجزائر مجلسين استشاريّين إلى جانب البيكلربك، وهما مجلس الشورى والديوان، وكان البيكلربك يمارس نفوذه على باشوات تونس وطرابلس [101].

نتائج الدراسة

بعد الانتهاء من هذه الدراسة، بالإمكان التوقُّف عند بعض النتائج ومنها:

1. فتحت حالة الضعف والتفكّك التي تفشّت في بلاد المغرب عشيّة وبعد سقوط غرناطة، شهيّة الإسبان والبرتغاليّين لاحتلال بعض المدن الساحليّة في تلك البلاد من جهة، كما سرّعت من مهمّة الإسبان في القضاء على غرناطة من جهةٍ أخرى.
2. لا يوجد ما يدلُّ على أن السلطان (سليم الأول)، قد عيّن (عروجًا) في منصبٍ رسميّ باسم السلطنة العثمانيّة حتى تاريخ استشهاده، نظرًا لقِصر المدّة الزمنيّة التي أمضاها في جهاده في المغرب الأوسط.
3. مع قِصر مدّة نضال (عروج) ضدَّ القوى المحليّة والإسبان في المغرب الأوسط، لكنّه تمكّن من فرض واقعًا سياسيًّا وعسكريًّا جديدًا، مهّد به الطريق لأخيه (خير الدين) في استكمال المسار الجهادي الذي ابتدئه من قبل، ولينهي عهدًا مشرّفًا من الجهاد والنضال ضدَّ الاستعمار الإسباني، ومبشّرًا بتدشين عهدٍ جديد لا يقلّ أهميّةً عن عهده.
4. يُعدُّ تحرير (خير الدين) لحصن البينون قبالة سواحل مدينة الجزائر نصرًا مؤزّرًا، رسّخ بمقتضاه وجوده في مدينة الجزائر، كما يُعدُّ بمنزلة الفتح العثماني الرسمي للجزائر.

---

(96)- بربروس، ***مذكرات خير الدين بربروس***، ص193، 208.

(97)- السليماني، ***تاريخ مدينة الجزائر***، ص18؛

De Primadudie (Elie) (1875), "**Documents inédits sur l'Histoire de l'Occupation espagnole en Afrique (1506-1574)**", *Revue Africaine*, No. 19, p. 267.

(98)- حاجي خليفة، ***تحفة الكبار في أسفار البحار***، ص123.

(99)- الجزائري، محمد بن الأمير عبد القادر (1903)، ***تحفة الزائر في مآثر عبد القادر***، ج1، الإسكندرية: المطبعة التجارية، ص66.

(100)- دراج، ***الدخول العثماني إلى الجزائر***، ص324-329.

(101)- جوليان، ***تاريخ أفريقيا الشمالية***، ج2، ص340.

5. أبلى (خير الدين) في جهاده بالمغرب الأوسط بلاءً حسنًا، حيث تمكّن من بتر شأفة الزعامات المحليّة فيها من ناحية، وتحرير غالبية مدنها من الإسبان الذين لم يتبقَّ في أيديهم منها سوى مدينة وهران من ناحيةٍ أخرى.
6. إن عدد الأسرى الكبير الذين تمكّن (خير الدين) من أسرهم في جزائر البليار، الذي قُدِّر بنحو ستِّ آلاف مبالغٌ فيه، إذ لا يُعقل أن يكون بوسع سفنه حمل هذا العدد الكبير من الأسرى. ويبدو أن المؤرّخين قد ذكروا هذا الرَّقم، من باب تضخيم حجم الانتصار الذي حقّقه.
7. يبدو أن الأسباب التي دعت (هايدو) لتجاهل تفاصيل معركة بروزة على أهميّتها، ما تركته هذه الهزيمة من أثرٍ في نفوس الأوروبيّين عامة، والإسبان خاصّةً؛ فكأنّه أراد أن يمحو أثر هذه المعركة من الذاكرة الجماعيّة للأوروبيّين.
8. كان الغرض الرئيس من الكتاب الذي أرسله (شارل الخامس) إلى (خير الدين) بعد معركة بروزة، دفعه لقطع صلته بالسلطنة العثمانيّة، وذلك لإضعاف نفوذها في البحر المتوسّط وفي الجزائر، تمهيدًا لاستئصال شأفتها تمامًا في هذه البقاع.
9. إن الأخوين بربروسّا قد تمتّعا بسلطة التفويض المباشر من السلطان العثماني في حكم المغرب الأوسط. وبذلك؛ فإن الولاية العسكريّة الجديدة التي أُقيمت في الجزائر، كانت بمنزلة سلطة حكمٍ ذاتيّ، ذات ارتباطٌ وثيق بالحكومة المركزيّة في الآستانة.

مراجع الدراسة

أولًا: المراجع الأوليّة

- بربروس، خير الدين (2010)، **مذكرات خير الدين بربروس**، ترجمة: د. محمد دراج، ط1، الجزائر: شركة الأصالة للنشر والتوزيع.
- الجيلالي، عبد الرحمن بن محمد (1965)، **تاريخ الجزائر العام**، ج2، ط2، الجزائر: مكتبة الشركة الجزائرية، بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة.
- حاجي خليفة المشهور باسم كاتب جلبي (2017)، **تحفة الكبار في أسفار البحار**، تحقيق وترجمة: د. محمد حرب، د. تسنيم حرب، ط1، دار البشير للتفافة والعلوم.
- ابن أبي دينار، محمد بن أبي القاسم القيرواني (1286ه)، **المؤنس في أخبار إفريقية وتونس**، ط1، تونس: مطبعة الدولة التونسية.
- الزياني، محمد بن يوسف (2013)، **دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران**، تحقيق وتقديم: الشيخ المهدي البوعبدلي، ط1، الجزائر: عالم المعرفة للنشر والتوزيع.
- سرهنك، إسماعيل (1312ه)، **حقائق الأخبار عن دول البحار**، ج1، ط1، القاهرة: المطبعة الأميرية.
- ابن سحنون الراشدي، أحمد بن محمد بن علي (2013)، **الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني**، تحقيق وتقديم: الشيخ المهدي البوعبدلي، ط1، الجزائر: عالم المعرفة للنشر والتوزيع.
- شعيب، بن علي محمد المهدي (1980)، **أم الحواضر في الماضي والحاضر: تاريخ مدينة قسنطينة**، الجزائر: مطبعة البعث.
- مجهول المؤلف (2009)، **سيرة المجاهد خير الدين بربروس في الجزائر**، تحقيق وتقديم وتعليق: د. عبد الله حمادي، الجزائر: دار القصبة للنشر.
- مجهول المؤلف (1934)، **غزوات عروج وخير الدين**، تصحيح وتعليق: نور الدين عبد القادر، الجزائر: المطبعة الثعالبية.
- المزاري، عودة (1990)، **طلع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر**، تحقيق ودراسة: د. يحيى بوعزيز، ط1، بيروت: دار الغرب الإسلامي.
- ابن المفتي، حسين بن رجب شاويش (2009)، **تقييدات ابن المفتي في تاريخ باشوات الجزائر وعلمائها**، جمعها واعتنى بها: فارس كعوان، ط1، الجزائر: بيت الحكمة.
- الوزان الفاسي، الحسن بن محمد (1983)، **وصف أفريقيا**، ترجمة: محمد حجي؛ محمد الأخضر، ج2، ط2، بيروت: دار الغرب الإسلامي.

ثانيًا: المراجع العربية والمترجمة

- آلتر، عزيز سامح (1989)، **الأتراك العثمانيون في أفريقيا الشمالية**، ترجمة: محمود علي عامر، بيروت: دار النهضة العربية.
- ايفانوف، نيقولاي (1988)، **الفتح العثماني للأقطار العربية 1516-1574**، ترجمة: ياسر عطا الله، ط1، بيروت: دار الفارابي.
- برّاتشينا، دون باسكوال بورونات إي (2012)، **الموريسكيون الإسبان ووقائع طردهم**، الكتاب الأول من الجزء الأول، ترجمة: د. كنزة الغالي، ط1، بيروت: مطابع دار الكتب العلمية.

- بلقاضي، بدر الدين؛ بن حموش، مصطفى (2007)، **تاريخ وعمران قصبة الجزائر من خلال مخطوط ألبير ديفولكس**، الجزائر: المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية.
- الجزائري، محمد بن الأمير عبد القادر (1903)، **تحفة الزائر في مآثر عبد القادر**، ج1، الإسكندرية: المطبعة التجارية.
- الجمل، شوقي عطا الله (1977)، **المغرب العربي الكبير في العصر الحديث**، ط1، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية.
- جوليان، شارل أندري (1983)، **تاريخ أفريقيا الشمالية: تونس، الجزائر، المغرب الأقصى من الفتح الإسلامي إلى سنة 1830م**، تعريب: محمد مزالي، والبشير بن سلامة، ج2، ط2، تونس: الدار التونسية للنشر.
- دراج، محمد (2012)، **الدخول العثماني إلى الجزائر ودور الإخوة بربروس 1512-1543**، ط1، الجزائر: شركة الأصالة للنشر والتوزيع.
- رضوان، نبيل عبد الحي (1988)، **جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس واسترداده في مطلع العصر الحديث**، ط1، الرياض: مكتبة الطالب الجامعي.
- روجر، ب. ج. (1981)، **تاريخ العلاقات الإنكليزية المغربية حتى عام 1900**، ترجمة: د. لبيب يونان رزق، ط1، الدار البيضاء: دار الثقافة.
- بوزياني، الدراجي (1993)، **نظام الحكم في دولة بني عبد الواد الزيانية**، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.
- سبنسر، وليم (2006)، **الجزائر في عهد رياس البحر**، تعريب وتعليق: د. عبد القادر زبادية، الجزائر: دار القصبة للنشر والتوزيع.
- سعد الله، أبو القاسم (1998)، **تاريخ الجزائر الثقافي الجزء الأول 1500-1830**، ط1، بيروت: دار الغرب الإسلامي.
- السليماني، أحمد (1989)، **تاريخ مدينة الجزائر**، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.
- شلبي، أحمد (1995)، **موسوعة التاريخ الإسلامي**، ج4، ط10، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية.
- شوفالييه، كورين (2007)، **الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر 1510-1541**، ترجمة: جمال حمادنة، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.
- عباد، صالح (2012)، **الجزائر خلال الحكم التركي 1514-1830**، الجزائر: دار هومة.
- عبد القادر، نور الدين (1965)، **صفحات من تاريخ مدينة الجزائر من أقدم عصورها إلى انتهاء العهد العثماني**، قسنطينة: كلية الآداب للنشر والتوزيع، مطبعة البعث.
- العسلي، بسام (1980)، **خير الدين بربروس والجهاد في البحر 1470-1547م**، ط1، بيروت: دار النفائس.
- العقاد، صلاح (1993)، **المغرب العربي في التاريخ الحديث والمعاصر**، ط6، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية.
- فارس، محمد خير (1969)، **تاريخ الجزائر الحديث من الفتح الإسلامي إلى الاحتلال الفرنسي**، ط1، دمشق.
- فكاير، عبد القادر (2012)، **الغزو الإسباني للسواحل الجزائرية 910-1206هـ /1505-1792م**، الجزائر: دار هومة، ص19.
- المدني، أحمد توفيق (ب.ت)، **حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا 1492-1792**، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
- المطوي، محمد العروسي (1986)، **السلطنة الحفصية: تاريخها السياسي ودورها في المغرب الإسلامي**، بيروت: دار الغرب الإسلامي.
- الميلي، مبارك بن محمد (1984)، **تاريخ الجزائر في القديم والحديث**، ج3، الجزائر: مكتبة النهضة الجزائرية.
- هايدو، فراي دييغو (2013)، **تاريخ ملوك الجزائر**، ترجمة: أبو لؤي عبد العزيز الأعلى، ط1، الجزائر: دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع.
- وولف، جون، ب. (2009)، **الجزائر وأوروبا 1500-1830**، ترجمة وتعليق: أبو القاسم سعد الله، الجزائر: دار الرائد، وعالم المعرفة.
- يحياوي، جمال (2004)، **سقوط غرناطة ومأساة الأندلسيين 1492-1610م**، الجزائر: دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع.

ثالثًا: الرسائل العلمية غير المنشورة

- بن خروف، عمار (1983)، **العلاقات بين الجزائر والمغرب 923-1069هـ / 31517-1659م**، رسالة ماجستير غير منشورة، دمشق: جامعة دمشق.
- شقدان، بسام كامل (2002): **تلمسان في العهد الزياني 633-962هـ / 1235–1555م**، رسالة ماجستير غير منشورة، نابلس: جامعة النجاح الوطنية.
- فكاير، عبد القادر (2008-2009)، **أثار الاحتلال الإسباني خلال العهد العثماني (10-12هـ / 16-18م)**، رسالة دكتوراه غير منشورة، الجزائر: جامعة الجزائر 2.

رابعًا: الدوريات والمؤتمرات العلمية

- ابلالي، أسماء (2017)، "**التحرشات الإسبانية على سواحل الجزائر خلال القرن 10هـ/ 16م: قراءة في الدوافع والنتائج**"، الجزائر: مجلة روافد للبحوث والدراسات، جامعة غرداية، المجلد 2، العدد 1.

- التميمي، عبد الجليل (يوليو 1976)، "**أول رسالة من أهالي مدينة الجزائر إلى السلطان سليم الأول سنة 1519**"، تونس: المجلة التاريخية المغربية، العدد 6.
- الصباغ، ليلى (سبتمبر - أكتوبر 1975)، "**ثورة مسلمي غرناطة عام (976هـ أواخر عام 1568م) والدولة العثمانية**"، الجزائر: مجلة الأصالة العدد 27.
- فكاير، عبد القادر (2011)، "**الغارات الإسبانية على مدينة تلمسان خلال النصف الأول من القرن السادس عشر**"، مجلة عصور الجديدة، العدد 2.

خامسًا: المراجع الأجنبية

- Belhamissi (Moulay) (1996), **Marine et Marins D'Alger (1518-1830)**, Tome 1, Alger: Bibliothèque Nationale D'Algerie.
- Braudel (Fernand) (1928), "**les Espagnols en Afrique du Nord de 1492 à 1577**", Revue africaine, No. 69.
- Cat (Edward) (1889), **Petite Histoire de l'Algérie – Tunisie - Maroc**, Edited by Adolphe Jourdan, Tome 1, Imprimeur-Libraire-Editeur, Alger.
- Coles (Paul) (1968), **The Ottoman Impact on Europe**, New York: Harcourt, Brace & World.
- De Grammont (H. D.) (1887), **Histoire d' Alger sous la domination turque (1515-1830)**, Paris: Ernest Leroux, Editeur,
- De Primadudie (Elie) (1875), "**Documents inédits sur l'Histoire de l'Occupation espagnole en Afrique (1506-1574)**", Revue Africaine, No. 19.
- Devoulx (Albert) (1876), "**Alger, Etude archéologique et** topographique sur **cette ville**", Revue Africaine, No. 20.
- Elliott (J. H.) (2002), **Imperial Spain 1469-1716**, London: Penguin Group.
- Guin (L.) (1886), "**Quelques notes sur les entreprises des espagnoles pédantes la première occupation d'Oran**", Revue Africaine, No. 178.
- Fey (Henri- Léon) (1858), **Histoire D'Oran avant, Pendant et Après La Domination Espagnole**, Oran: Typographei Adolphe Perrier Éditeur.
- Linden (H. Vander) (October 1916), "**Alexander VI. And the demarcations of the Maritime and Colonial Domains of Spain and Portugal, I493-I494**", The American Historical Review, Vol. XXII, No. 1.
- Lynch (John) (1981), **Spain Under the Habsburgs, Empire، and absolutism, 1516-1598**, Vol. 1, Oxford: Basil Blackwell.
- Vatin (Nicolas) (2012), "**Arabes et Turcs au Maghreb dans les Années 1513-1520**", Osmanlı Araştırmaları (The Journal of Ottoman Studies), X.